# نهة النائبين

قسم الشؤون الدينيت



#### المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الخلق أجمعين أبي القاسم محمد وعلى آل بيته الطيبين الطاهرين... وبعد

خلق الله تعالى الخلق لطاعته وعبادته ونهاهم عن معصيته ومخالفته، وأمرهم بالتوبة إذا ارتكبوا معصية أو ذنباً، ووعد التائبين قبول توبتهم والتكفير عن سيئاتهم وإبدالها حسنات كما قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوكِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ \* أُولِئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ بَحْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَوْفِيمُ أَوْلَئِكَ جَزَاؤُهُم مَعْفِرَةٌ مِّن رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ بَحْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَوْفِيمُ أَحْدُ الله (حل أَجْرُ الله تعالى، ويعلم أن الله (حل أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾ أ. فعلى الإنسان الا يقنط من رحمة الله تعالى، ويعلم أن الله (حل وعلا) قادر على أن يجازيه الجزاء الأوفى.

والتوبة هي باب الله الآمن الذي فتحه الله تعالى إلى ساحة عفوه وكرمه والتوبة دعوة ربانية وكرامة إلهية لكل مذنب وعاصي، فما علينا إلا أن نطهر أنفسنا من الخطايا والذنوب بنية خالصة ورغبة صادقة، فبابه مفتوح لعباده المذنبين. كما في الدعاء عن الإمام السحاد (عليه السلام): (إلهي أنت الذي فتحت لعبادك باباً إلى عفوك سميته التوبة).

(١) سورة أل عمران: الأيات ١٣٥-١٣٦.

<sup>(</sup>٢) الصحيفة السجادية: مناجاة التائبين.

فمن عظيم نعم الله علينا أن شرع لنا باب التوبة، وضمن لنا القبول والإجابة إن بادرنا إلى الدخول في جملة عباده التائبين، ومن وفقه الله للتوبة فليعلم أن الله قد أحبه لأن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين. يقول تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَابِينَ وَيُحِبُ التَّوَابِينَ وَيُحِبُ المتطهرين. يقول تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُ التَّوَابِينَ وَيُحِبُ المُتَطَهِرِينَ ﴿ اللَّهُ يَحِبُ التَّوَابِينَ وَيُحِبُ المُتَطَهِرِينَ ﴿ اللَّهُ اللَّهُ يَحِبُ المُتَطَهِرِينَ ﴾ (١).

وفي الحديث الشريف عن النبي الأعظم (صلى الله عليه وآله): ((مثل المؤمن عند الله عز وجل كمثل ملك مقرب، وإن المؤمن عند الله عز وجل أعظم من ذلك، وليس شيء أحب إلى الله من مؤمن تائب، أو مؤمنة تائبة))(٢).

وورد عن معاوية بن وهب قال: سمعت أبا عبد الله (عليه السلام) يقول: ((إذا تاب العبد توبة نصوحا أحبه الله فستر عليه، فقلت: وكيف يستر عليه؟ قال: ينسي ملكيه ماكانا يكتبان عليه ويوحي [الله] إلى جوارحه وإلى بقاع الأرض أن اكتمي عليه ذنوبه فيلقى الله عز وجل حين يلقاه وليس شيء يشهد عليه بشيء من الذنوب)(").

فالتوبة الصادقة هي التي تصرف صاحبها وتخلصه من الرجوع إلى الذنب، ويمكن تحقيق ذلك من خلال الاستعانة بالله تعالى على ذلك واتباع النهج الديني التربوي.

(١) سورة البقرة: الآية ٢٢٢.

<sup>(</sup>٢) بحار الأنوار: ج ٦، ص٢١.

<sup>(</sup>٣) الكافي: ج٢، ص٤٣٦.

وللتوبة الصادقة آثارٌ عظيمة في حياة الإنسان وآخرته فبالإضافة إلى إنها سبب لمحبة الله تعالى لعبده، فهي سبب لمحو السيئات وإبدالها بالحسنات ونيل رضا الله تعالى وغفران الذنوب.

وقد أوضح تعالى لعباده معيار الهداية الإلهية وشرائطها للجميع ليستطيعوا التوجه إليه والوصول إلى بحر رحمته ويدخلوا في جملة من أحبهم الله تعالى، فما علينا إلا نعجل مادامت الفرصة سانحة لنتوب إلى الله تعالى سيما إن كان المرء في عمر الشباب.

(إلهِي إِنْ كَانَ قَلَّ زَادِي فِي الْمَسِيرِ إلَيْكَ، فَلَقَدْ حَسُنَ ظَنِي بِالتَّوَكُّلِ عَلَيْكَ، وَإِنْ كَانَ جُرْمِي قَدْ أَخَافَنِي مِنْ عُقُوبَتِكَ، فَإِنَّ رَجائِي قَدْ أَشْعَرَنِي بِالأَمْنِ مِنْ نِقْمَتِكَ) (١). وهنا حاولنا أن نبين أهمية وحقيقة التوبة ووجوبها ومراتبها وكيفيتها، مما يستدعي بيان أقسام الذنوب وبيان أجناس الكبائر، وشرائط قبول التوبة وغيرها العديد من أمهات المطالب وتجنبنا ذكر الفضول منها.

سائلين المولى تبارك وتعالى أن يتقبل منها هذا القليل، وأن ينفع به المؤمنين ويكون ذخراً لنا يوم لا ينفع مال ولا بنون إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ.

<sup>(</sup>١) الصحيفة السجادية: ص٢٨٨.

#### حقيقة التوبة

التوبة عبارة عن امور ثلاثة مترتبة الأول منها يقتضي الثاني وهو يقتضي الثالث، وهذه الأمور هي العلم والندم والإرادة المستتبعة للعمل، أما العلم فهو معرفة عظم ضرر الذنوب وكونها هي التي تمنع الإنسان من الوصول إلى ما يحبه سواء كان هذا المحبوب دنيوياً أو أخروياً، فإذا عرف الإنسان ذلك معرفة حقيقية بيقين غالب على قلبه، حصل ألم في النفس بسبب فوات المحبوب فإن القلب متى شعر بفوات محبوبه تألم، خصوصاً إذا كان الفوات بسببه هو، ويسمى تألمه بسبب فعله الذي فوت محبوبه ندماً، فإذا غلب هذا الندم على القلب واستولى انبعث من هذا الألم حالة أخرى تسمى إرادة وقصداً بأن يترك الذنب الذي كان يذنبه وبسببه فات المحبوب، وأن يعزم على عدم العودة إليه مستقبلاً بان يعزم على ترك الذنب إلى آخر العمر، وأن يتلافى آثار الذنب من تبعات مالية أو قضاء عبادات وما شاكل مما ستتعرف عليه قريباً إن شاء الله تعالى.

فالعلم هو الأول وهو مطلع هذه الخيرات، والمراد من العلم الإيمان واليقين فإن الإيمان عبارة عن التصديق بأن الذنوب سموم مهلكة، واليقين عبارة عن تأكد هذا التصديق وانتفاء الشك عنه واستيلائه على القلب، فيثمر نور هذا الإيمان مهما اشرق على القلب نار الندم فيتاً لم به القلب حيث يدرك أنه صار محجوباً عن محبوبه كمن يشرق عليه نور الشمس وقد كان في ظلمة فيسطع النور عليه بانقشاع سحاب أو انحسار حجاب فرأى محبوبه وهو لا يقدر على الوصول إليه، فتشتعل نيران الندم في قلبه فتنبعث من تلك النيران إرادة لتدارك ما فاته، عله يحصل على مطلوبه.

فالعلم والندم والقصد المتعلق بالترك ثلاثة معان مترتبة في الحصول يطلق اسم التوبة على مجموعها، وكثيراً ما يطلق اسم التوبة على معنى الندم وحده ويجعل العلم كمقدمة له وترك الذنوب كالثمرة والنتيجة، وبحذا الاعتبار قال (صلى الله عليه واله): ((الندم توبة))(1). اذ لا يخلو الندم عن علم أوجبه وكان هو السبب له وعزم يثمره وينتجه.

فيكون الندم محفوفاً بطرفيه أعني العلم والإرادة المستتبعة لترك الذنوب.

(١) بحار الأنوار: ج٧٤، ص١٥٩.

## وجوب التوبة وفضلها

يدل على وحوب التوبة وفضلها قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّقَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ بَحْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّعِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَا فِيمُ اللَّهُ النَّعِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَا فِيمُ اللَّهُ النَّعِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَا فِيمْ يَعْفِيلُونَ رَبَّنَا أَثْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (١) ومعنى النصوح الخالص لله.

وقوله تعالى أيضاً: ﴿وَتُوبُوا إلى اللهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (٢)، وهو أمر منه تعالى للمؤمنين كافة، ومن المعلوم أن الأمر مفاده الوجوب فيجب عليهم جميعاً التوبة، وقد جعل تعالى نتيجة التوبة الفلاح.

وكذلك قوله عز من قائل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ (٦).

وعن أبي جعفر الباقر (عليه السلام) أنه قال: ((إن الله اشد فرحاً بتوبة عبده من رجل أضل راحلته وزاده في ليلة ظلماء فوجدها فالله تعالى أشد فرحاً بتوبة عبده من ذلك الرجل براحلته حين وجدها)).(<sup>3)</sup>

وعن الصادق (عليه السلام): ((إن الله يفرح بتوبة عبده المؤمن إذا تاب كما يفرح أحدكم بضالته إذا وجدها))(٥).

<sup>(</sup>١) سورة التحريم: الآية ٨.

<sup>(</sup>٢) سورة النور: الآية ٣١.

<sup>(</sup>٣) سورة البقرة: الآية ٢٢٢.

<sup>(</sup>٤) الكافي: ج٢، ص٤٣٥-٤٣٦ تحت رقم٨.

<sup>(</sup>٥) نفس المصدر السابق. تحت رقم١٣.

وعنه (عليه السلام) في قوله تعالى: ﴿ تُوبُوا إلى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا ﴾ قال: ((هو الله يحب من الذنب الذي لا يعود فيه أبداً. قيل: وأينا لم يعد؟ قال: يا فلان إن الله يحب من عباده المفتّن التواب))(()، وفي رواية أخرى: ((ومن لا يكون ذلك منه كان أفضل))()).

وعنه (عليه السلام): ((إذا تاب العبد توبة نصوحاً أحبه الله فستر عليه، قيل: وكيف يستر عليه؟ قال: يُنسي ملكيه ما كانا يكتبان عليه ويوحي الله إلى جوارحه وإلى بقاع الأرض أن اكتمي عليه ذنوبه فيلقى الله تعالى حين يلقاه وليس شيء يشهد عليه بشيء من الذنوب))(٣).

وعن الباقر (عليه السلام): ((التائب من الذنب كمن لا ذنب له، والمقيم على الذنب وهو يستغفر منه كالمستهزئ))<sup>(3)</sup>.

وقد انعقد إجماع الأمة بجميع طوائفها ومذاهبها على وجوب التوبة ولم يذكر فيه خلاف.

كما إن العقل حاكم بحسنها وقبح تركها فهذه الأدلة الأربعة من كتاب وسنة وإجماع وعقل قائمة على فضلها ووجوبها مما لا يدع مجالاً للشك فيهما.

<sup>(</sup>١) الكافي: ج٢، ص٤٣٢ تحت رقم٤.

<sup>(</sup>٢) نفس المصدر: ص٤٣٥ تحت رقم٩.

<sup>(</sup>٣) نفس المصدر: ص٤٣٦ تحت رقم ١٢.

<sup>(</sup>٤) نفس المصدر: تحت رقم١٣٠.

لكن قد يقال: إن التوبة هي الندم او على الأقل إن الندم هو جزء مهم من مركب اسمه التوبة وهو لا يدخل تحت اختيار الإنسان فهو من الأمور القلبية فكيف يكلف الله تعالى الإنسان بالندم وهو ليس باختياره، أليس هو كقول القائل حب فلان أو أبغض فلان مع إن الحب والبغض لا يقعان تحت اختيار الإنسان؟

والجواب: تقدم أن سبب حصول الندم هو العلم السابق بأن الذنوب هي سبب حرمان الإنسان مما يحبه ويطلبه، وتحصيل العلم داخل تحت اختيار الإنسان، فالتكليف به جائز، فاذا حصل العلم اشتعلت نار الندم في قلب الإنسان، ليتحقق بذلك ما يكفى من الندم الباعث نحو التوبة.

ومن جملة ما استدل به على وجوب التوبة:

أولا: إنما دافعة للضرر الذي هو العقاب، ودفع الضرر الأخروي واجب عقلاً.

ثانيا: إن العزم على ارتكاب القبائح وترك الفرائض قبيح عقلاً، فيحب احتنابه، وهو لا يحصل إلا بالتوبة.

# وجوب التوبة فوري

لا ريب في أن وجوب التوبة هو على الفور، لما تقدم من إن أول اجزاء التوبة هو العلم والاعتقاد ان المعاصي مهلكات، ومعرفة أن المعاصي مهلكات من نفس الإيمان، وهذا العلم هو نفس الإيمان، والإيمان واجب على الفور، فتكون التوبة واجبة على الفور.

ويحكم العقل بوجوب التوبة فوراً، لأنها اجتناب عن القبيح بقاء وترك للعدوان استدامة، ومثل ذلك لا يصح فيه التأخير والتراخي، أضف إلى ذلك إن العقل يحرض على التوبة فوراً لئلا يفوت أوانها ويكون ممن لا تقبل توبته ووَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّعَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّعَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَعُمَلُونَ السَّيِّعَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَعُمَلُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أَ أُولِيكَ أَعْتَدُنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيماً (١).

<sup>(</sup>١) سورة النساء: الآية ١٨.

## تارك التوبة ناقص الإيمان

كل علم يراد منه أن يكون باعثاً نحو عمل ما، لا تكون له فائدة إلا إذا أنتج ذلك العمل، فالعلم بضرر الذنوب – الذي هو أول اجزاء التوبة – انما أريد ليكون باعثاً على تركها فمن لم يتركها فهو فاقد لقدر من الإيمان، لما ورد من قوله (صلى الله عليه وآله): ((لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن))(۱)، وما أراد النبي (صلى الله عليه وآله) نفي الإيمان الذي هو الاعتقاد بالوحدانية والرسالة، فإن ذلك لا ينافي الزنا والمعاصي، فيجتمع العصيان مع الاعتقاد بحذه الأمور، وإنما أراد به نفي الإيمان بكون الزنا مبعداً عن الله وموجباً للمقت كما إذا قال الطبيب: هذا سم فلا تتناوله، فإذا تناوله الإنسان يقال تناوله وهو غير مؤمن ولا مصدق بقول الطبيب، لا بمعنى فإذا تناوله الإبسان بوجود الطبيب وكونه طبيباً بل المراد أنه غير مصدق بقوله انه سم مهلك، فان العالم بالسم لا يتناوله اصلا، فالعاصي بالضرورة ناقص الإيمان.

فإن للإيمان مراتب كما ورد في أحاديث أئمة أهل البيت (عليهم السلام)(٢).

كالذي رواه عبد العزيز القراطيسي قال: قال لي أبو عبد الله (عليه السلام): ((يا عبد العزيز إنّ الإيمان عشر درجات بمنزلة السلّم يصعد منه مرقاة بعد مرقاة فلا

(١) بحار الأنوار: ج٦٨، ص٣٠٨.

<sup>(</sup>٢) راجع تفسير الميزان ١٨: ٢٥٩.

يقولنَّ صاحب الاثنين لصاحب الواحد لست على شيء حتى ينتهي إلى العاشر))(١).

وكذلك ما ورد عن الإمام الصادق (عليه السلام) أنه قال: ((الإسلام درجة والإيمان عن الإسلام درجة. واليقين على الإيمان درجة. وما أوتي الناس أقلَّ من اليقين))(٢).

وعن أبي عمرو الزبيدي عن أبي عبدالله (عليه السلام) أنه قال: ((.. الإيمان حالات ودرجات وطبقات ومنازل، فمنه التام المنتهي تمامه، ومنه الناقص البيّن نقصانه، ومنه الراجح الزائد رجحانه، قلت: إنَّ الإيمان ليتم وينقص ويزيد؟ قال عليه السلام: نعم.. قلت:.. فمن أبين جاءت زيادته؟ فقال (عليه السلام): قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وإذا ما أُنزلت سُورةٌ فمنهُم من يقُولُ أيُّكُم زادتُهُ هذه إيماناً فأمَّا الَّذِينَ آمنُوا فزادتُهُم إيماناً وهُم يستبشرُونَ \* وأمّا الَّذِينَ في قُلوكِم مرضٌ فَزَادتُهُم رجساً إلى رجسِهِم (<sup>(2)</sup>). وقال: ﴿نحنُ نقصُ عليكَ نبأهُم بالحقِ إنّهُم فتيةٌ آمنُوا برتِّم وزدناهُم هُدى (<sup>3)</sup>. ولو كان واحداً لا زيادة فيه ولا نقصان لم يكن لأحد منهم فضل على الآخر ولاستوت النعم فيه ولاستوى الناس وبطل التفضيل، ولكن بتمام الإيمان دخل

<sup>(</sup>١) أصول الكافي: ٢: ٤٥ | ٢ كتاب الإيمان والكفر، باب آخر من درجات الإيمان.

<sup>(</sup>٢) تحف العقول: ٣٥٨.

<sup>(</sup>٣) سورة التوبة: الأيات ١٢٤ ـ ١٢٥.

<sup>(</sup>٤) سورة الكهف: الآية ١٣.

المؤمنون الجنة، وبالزيادة في الإيمان تفاضل المؤمنون بالدرجات عند الله وبالنقصان دخل المفرّطون النار)(١).

ثم إن صاحب الإيمان الضعيف قريب من ان تنقلع شجرة إيمانه إذا صدمتها الرياح العاصفة المحركة للإيمان في مقدمة قدوم ملك الموت ووروده، فكل إيمان لم يثبت في النفس أصله ولم تنتشر في الاعمال فروعه لم يثبت على عواصف الأهوال عند ظهور ناصية ملك الموت وخيف عليه سوء الخاتمة إلا ما سُقي بماء الطاعات على توالي الأيام والساعات حتى رسخ وثبت.

وقول العاصي للمطيع: إني مؤمن كما إنك مؤمن كقول شجرة القرع لشجرة الصنوبر: انا شجرة وانت شجرة. وما أحسن جواب شجرة الصنوبر اذ قالت: ستعرفين اغترارك بشمول الاسم إذا عصفت رياح الخريف فعند ذلك تنقلع اصولك وتتناثر أوراقك وينكشف غرورك بالمشاركة في اسم الشجرة مع الغفلة عن أسباب ثبوت الاشجار، ((وسوف ترى إذا انجلى الغبار \* أفرس تحتك أو حمار)) فهذا أمر يظهر عند الخاتمة.

<sup>(</sup>١) أصول الكافي ٢: ٣٣، ٣٧ /١ كتاب الإيمان والكفر.

#### وجوب التوبة عام لا ينفك عنه أحد

قد دل القران الكريم على شمول وجوب التوبة للناس كافة وفي سائر الاحوال، كقوله تعالى: ﴿وَتُوبُوا إلى اللهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾(١)، فعمم الخطاب للمؤمنين كافة، وكما إن النظر البسيط يقتضي الحكم بذلك، إذ معنى التوبة الرجوع عن الطريق المبعد عن الله تعالى والمقرب من الشيطان.

#### توضيح ذلك:

إن غريزة العقل في الإنسان لا تكتمل فيه إلا بعد كمال غريزة الشهوة والغضب وسائر الصفات المذمومة التي هي وسائل الشيطان إلى إغواء الإنسان فقد ذكر علماء الأخلاق إن كمال العقل لا يكون الا عند مقاربة الأربعين وأصله يكون عند مراهقة البلوغ ومباديه – أي العقل – تظهر بعد سبع سنين، والشهوات جنود الشيطان والعقول جنود الملائكة، وإذا اجتمعا قام القتال بينهما بالضرورة، إذ لا يمكن أن يجتمعا، فالتطارد بينهما كتطارد الليل والنهار والنور والظلمة، وإذا كانت الشهوات تكمل في الصبا والشباب قبل كمال العقل فقد سبق جند الشيطان واستولى على المكان ووقع للقلب انس وألفة لما تقتضيه قوة الشهوة وغلب ذلك عليه وتعسر عليه تركها، ثم يلوح العقل الذي هو حزب الله وجنده ومنقذ اوليائه من ايدي اعدائه شيئا فشيئاً على التدريج، فإن لم يقو ولم يكتمل سُلِّمت مملكة القلب

<sup>(</sup>١) سورة النور: الأية ٣١.

إلى الشيطان وأنحز اللعين وعده حين قال للحق تبارك وتعالى: ﴿لَاحْتَنِكَنَّ ذُرِيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ (١)، وإن قويَ العقل وَكَمُل كان أول شغله قمع جنود الشيطان بكسر الشهوات ومفارقة العادات بواسطة العبادات ولا معنى للتوبة إلا هذا وهو الرجوع عن طريق الشهوة إلى طريق الله تعالى.

إذن أكثر الناس تكون شهوته سابقه على عقله وغريزته التي هي عدة للشيطان متقدمة على غريزته التي هي عدة للملائكة فكان الرجوع عما يساعد على الشهوات ضرورياً في حق كل إنسان فإذن كل من بلغ كافراً جاهلاً فعليه التوبة من كفره وجهله، فإن بلغ مسلماً تبعاً لأبويه غافلاً عن حقيقة اسلامه فعليه التوبة من غفلته بفهم معنى الإسلام، فإن لم تكن التوبة للغافل عن حقيقة الإسلام واجبة فهي غاندب إليه الشارع المقدس، فإنه لا يغني عنه اسلام أبويه شيئاً ما لم يسلم بنفسه، فإن فهم ذلك فعليه الرجوع عن عادته وعن الاسترسال وراء الشهوات من غير صارف والانكفاف بحفظ حدود الله تعالى وهو من أشق ابواب التوبة.

وأما وجوب التوبة على الدوام وفي كل حال فدليله: أن كل انسان غير معصوم لا يخلو عن معصية الجوارح فلا يخلو عن معصية الجوارح فلا يخلو عن معصية الجوارح فلا يخلو عن الهم بالذنب بالقلب، فإن خلا عن الهم فلا يخلو عن وسواس الشيطان بإيراد الخواطر المتفرقة التي تذهله وتشغله عن ذكر الله، فإن خلا عنه فلا يخلو عن غفلة

(١) سورة الإسراء: الآية ٦٢.

وقصور في العلم بالله وصفاته وآثاره، وكل ذلك نقص وله أسباب وترك هذه الأسباب هو في الحقيقة رجوع وتوبة منها.

قد يقال: هذا حال غير المعصومين فما حال المعصوم؟

وهنا ينبغي التنبيه على إن استغفار الأنبياء والأوصياء (عليهم السلام) ليس لذنب ارتكبوه بل إنما هو لزيادة الأجر والاعتراف بتقصيرهم في حق الله تعالى. روى في الكافي بسند حسن عن علي بن رئاب قال: سألت أبا عبد الله (عليه السلام) عن قول الله تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ﴾(١)، أرأيت ما أصاب علياً (عليه السلام) وأهل بيته من بعده أهو بما كسبت أيديهم وهم أهل بيت طهارة معصومون؟ فقال: إن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) كان يتوب إلى الله ويستغفره في كل يوم وليلة مائة مرة من غير ذنب إن الله يخص اولياءه بالمصائب ليأجرهم عليها من غير ذنب)(٢).

وبإسناده عن أبي بصير عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: قلت له: ﴿فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم \* إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربحم يتوكلون فقال: يا أبا محمد تسلطه والله من المؤمن على بدنه ولا يسلّط

(١) سورة الشورى: الآية ٣٠.

<sup>(</sup>٢) الكافي: ج٢، ص٤٥٠ تحت رقم ٢.

على دينه وقد سلّط على أيوب فشوَّه خلقه ولم يسلّط على دينه وقد يسلّط من المؤمنين على أبدانهم ولا يسلّط على دينهم)(١).

<sup>(</sup>١) الكافي: ج ٨ (كتاب الروضة)، ص ٢٨٨، والآيات في سورة النحل: ٩٩-٩٩.

قد يقال: إن الإنسان إذا حصّل ملكة العدالة وكان مستقيماً على جادة الشريعة بأن يفعل كل الواجبات ويترك جميع المحرّمات فلا يجب عليه تحصيل الدرجات العليا من الكمال والتي هي أعلى من درجة العدالة المعتبرة في الفقه، وعليه فلا يجب على هذا المكلف أن يتوب من المرتبة السابقة؟

الجواب: إن المراد من الوجوب أحد معنيين:

الأول: بمعنى الإلزام الشرعي الذي هو أحد الأحكام التكليفية الخمسة وهو المستعمل في الفقه.

الثاني: بمعنى ماكان مقدمة للمطلوب. وبعبارة أحرى؛ إن الإنسان إذا أراد شيئاً وهذا الشيء له مقدمات فلابد من تحصيل هذه المقدمات، فمثلاً الصلاة المندوبة ليست واجبة على المكلف، إلا إننا نقول: إذا أردت هذه الصلاة فيجب عليك أن تتوضأ، فالوجوب هنا ليس بمعنى الإلزام الشرعي، وإنما هو بمعنى أن الصلاة المندوبة التي أرادها المكلف لا تتم الا بالوضوء فهو مقدمة لها.

وهنا نقول وجوب التوبة المذكور هو بهذا المعنى، فإذا أراد الإنسان أن يصل إلى الدرجات العليا من الكمال فلابد له من التوبة، لأنها مقدمة لها.

فالعدالة المعتبرة في الفقه توجب أصل النحاة، لكن ما وراء هذا الأصل من السعادات، فلا تُنال إلا بالتوبة مماكان عليه.

ولهذا سعى الانبياء والأولياء والعلماء، وعليه كان حرصهم وحواليه كان تطوافهم، ولأجله كان رفضهم لملاذ الدنيا حتى انتهى عيسى (صلوات الله عليه) إلى توسد الحجر في منامه فجاء إليه الشيطان وقال: أما كنت تركت الدنيا للآخرة؟ فقال (عليه السلام): نعم، وما الذي حدث؟ فقال: توسدك لهذا الحجر تنعم بالدنيا فلم لا تضع رأسك على الأرض، فرمى عيسى بالحجر ووضع رأسه على الأرض. (1).

وكان رميه الحجر توبة عن ذلك التنعم، افترى أن عيسى (عليه السلام) لم يعلم أن وضع الرأس على الأرض لا يسمى واجباً في الفقه! فتأمل أحوال هؤلاء الذين هم أعرف خلق الله بالله وبالطريق إلى الله.

فمن التفت إلى هذه النكتة علم أن لزوم التوبة النصوح لازم للعبد مهما وصل به الكمال ولو عَمَّرَ عُمرَ نوح (عليه السلام) وأن ذلك واجب عليه من غير مهلة.

ولقد صدق من قال: لو لم يبك العاقل فيما بقي من عمره إلا على فوت ما مضى منه في غير طاعة الله لكان خليقاً أن يحزنه ذلك إلى الممات فكيف من يستقبل ما بقى من عمره بمثل ما مضى من جهله.

وإنما قال هذا لأن العاقل إذا ملك جوهرة نفيسة وضاعت منه بغير فائدة بكى عليه لا محالة وإن ضاعت منه وصار ضياعه سبب هلاكه كان بكاؤه منه أشد، وكل ساعة من العمر بل كل نفس نتنفسه جوهرة نفيسة لا خلف لها ولا بدل منها، فإنها قادرة على أن توصلك إلى سعادة الأبد وتنقذك من شقاوة الأبد وأي جوهرة أنفس

<sup>(</sup>١) المحجة البيضاء، للفيض الكاشاني: ج٧، ص٢٦.

من هذا، فإذا ضيعناها في الغفلة فقد حسرنا حسراناً مبيناً وإن صرفناها إلى معصية فقد هلكنا هلاكاً فاحشاً، فإن كنا لا نبكي لهذه المصيبة فذلك لجهلنا، ومصيبتنا بجهلنا أعظم من كل مصيبة، لكن الجهل مصيبة لا يعلم صاحبها أنه صاحب مصيبة فإن نوم الغفلة يحول بينه وبين معرفته ((الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا))(۱)، فعند ذلك ينكشف لكل مفلس إفلاسه ولكل مصاب مصيبته، وقد وقع اليأس عن التدارك.

قال بعض العارفين: إن ملك الموت إذا ظهر للعبد أعلمه أنه قد بقي من عمرك ساعة وأنك لا تستأخر عنها طرفة عين فيبدو للعبد من الحزن والأسف والحسرة ما لو كانت له الدنيا بحذافيرها لخرج منها على أن يُضم إلى تلك الساعة ساعة أخرى ليتدارك تفريطه فلا يجد اليها سبيلاً وهو أول ما يظهر من معاني قوله تعالى: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾(١).

وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّن الصَّالِحِينَ \* وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَخَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (٢)، فقيل الأجل القريب الذي يطلبه معناه أنه يقول عند كشف الغطاء للعبد: يا ملك الموت أخري يوماً أعتذر فيه إلى ربي وأتوب

(١) مستدرك الوسائل: ج٢، ص٢٦٥.

<sup>(</sup>٢) سورة سبإ: الآية ٥٤.

<sup>(</sup>٣) سورة المنافقون: الأيات ١٠-١١.

وأتزود صالحاً لنفسى، فيقول: فنيت الأيام فلا يوم، فيقول: أحربي ساعة فيقول: فنيت الساعات فلا ساعة، فيغلق عليه باب التوبة فيغرغر بروحه وتتردد أنفاسه في شراسيفه ويتجرع غصة اليأس عن التدارك وحسرة الندامة على تضييع العمر فيضطرب أصل إيمانه في صدمات تلك الأهوال فإذا زهقت نفسه فإن كانت سبقت له من الله الحسني خرجت روحه على التوحيد وذلك حسن الخاتمة، وإن سبق له القضاء بالشقوة - والعياذ بالله - خرجت روحه على الشك والاضطراب وذلك سوء الخاتمة. ولمثل هذا قال تعالى: ﴿ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّمَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَهُ(١)، بل التوبة كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمُّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ ﴿ ٢)، ومعناه عن قريب من وقت الخطيئة بأن يتندم عليها ويمحو آثارها بحسنة يردفها بما قبل أن يتراكم الرين على القلب فلا يقبل المحو، ولذلك قال (صلى الله عليه واله): ((أتبع السيئة الحسنة تمحها))(٢٠)، ولذلك قال لقمان لابنه: يا بني لا تؤخر التوبة فإن الموت يأتي بغتة، ومن ترك المبادرة إلى التوبة بالتسويف كان بين خطرين عظيمين أحدهما أن تتراكم الظلمة على قلبه من المعاصى حتى يصير ريناً وطبعاً فلا يقبل المحو. والثاني أن يعاجله المرض أو الموت فلا يجد مهلة للاشتغال بالمحو، ولذلك ورد في الخبر ((إن أكثر صياح أهل النار من التسويف))(٤)، فما هلك من هلك إلا بالتسويف فيأتي

(١) سورة النساء: الآية ١٨.

 <sup>(</sup>۲) سورة النساء: الآية ۱۷.

<sup>(</sup>٣) بحار الأنوار: ج٦٨، ص٣٩٣.

<sup>(</sup>٤) المحجة البيضاء: ج٧، ص٣٤.

الله بقلبٍ غيرَ سليم فالقلب والعمر أمانتان لله عند العبد فمن خان الأمانة ولم يتدارك خيانته فهو على خطر.

قال بعض العارفين: إن لله تعالى إلى عبده سرين يسرهما إليه على سبيل الإلهام أحدهما إذا خرج من بطن أمه يقول له: عبدي قد أخرجتك إلى الدنيا طاهراً نظيفاً واستودعتك عمرك وائتمنتك عليه فانظر كيف تحفظ الأمانة، وانظر كيف تلقاني.

والثاني عند خروج روحه يقول: عبدي ماذا صنعت في أمانتي عندك هل حفظتها حتى تلقاني على العهد فألقاك على الوفاء أو أضعتها فألقاك بالمطالبة والعقاب. واليه الاشارة بقوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ﴾(١)، وبقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴾(٢).

<sup>(</sup>١) سورة البقرة: الآية ٤٠.

<sup>(</sup>٢) سورة المؤمنون: الآية ٨.

#### شروط التوبة النصوح

قال تعالى: ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهِ مَا اللَّهِ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذَّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْعَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿ (١).

وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا ﴿ ٢ ).

على العبد أن يحسن الظن بالله تعالى ويعلم أنه غفور رحيم فيرجع إليه طالباً العفو والصفح ((فمن تاب تاب الله عليه)) (٢)، وعليه أن يتيقن أن الله تعالى قادر على مغفرة الذنوب للذين يتوبون بصدق وإخلاص، وقد ورد في الروايات الشريفة أن الله تعالى يبدل سيئات التائب حسنات.

والمسلم العاقل هو الذي يُقَوِم نفسه ويأخذ بزمامها إلى ما فيه مرضاة الله تعالى، ويمنع نفسه من الجنوح إلى الوقوع في المعاصي والانغماس في الشهوات المحرمة.

وباب الله مفتوح للطالبين والطرق اليه بعدد أنفاس الخلائق، وأبواب مغفرته للتائبين مشرعة، ولا مفر منه إلا إليه فمن أراد النجاة والفوز في الدنيا والآخرة، عليه أن يجعل الله تعالى نصب عينيه، ويتوجه إليه طالباً مرضاته وللتوبة النصوح شروط ومقدمات نذكرها على الإجمال وسيأتيك تفصيلها عن قريب فانتظر:

- ١. أن يترك الذنب ويقلع عنه بنية صادقة وقلب سليم.
  - ٢ . الندم على ارتكاب الذنب وما صدر من سيئات.

<sup>(</sup>١) سورة الزمر: الآية ٥٣.

<sup>(</sup>٢) سورة التحريم: الآية ٨.

<sup>(</sup>٣) جامع الأخبار: ج٩، ص٤.

نهج التائبين ......

- ٣. العزم على عدم العودة للذنب.
- ٤ . أن يكثر الاستغفار وأن يجعل نفسه بين الخوف والرجاء.
- ٥. أن يهجر أصدقاء السوء بلا رجعة، وليغيرن حتى الملابس التي كان يرتديها أيام
  معصيته.
- ٦ . إذا كانت المعصية متعلقة بحقوق الاخرين كأكل مال اليتيم ظلماً وعدواناً أو الاعتداء عليهم بالضرب ونحوه، فلا بد من الخروج من هذه المظالم ونحوها وردها إلى أهلها واسترضاء المعتدى عليه.
- ٧ . إتلاف المحرمات الموجودة عند الإنسان كآلات اللهو والفساد أو حجبها واستعمالها بما هو جائز: كما في الأجهزة المرئية ونحوها، فيمتنع عن مشاهدة الأفلام الخليعة واستماع الأغاني ونحو ذلك.
- ٨ . أن تعمد إلى البدن الذي نبت لحمه من الحرام، فتذيبه في طاعة الله تعالى،
  لكى ينبت لحماً طيباً.
- ٩ . وقوع التوبة قبل بلوغ الروح إلى الحلقوم، قال تعالى: ﴿ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّعَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِي تُبْتُ الآنَ وَلاَ الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ (١).
  - ١٠. أن تذيق البدن ألم الطاعة كما أذقته حلاوة المعصية.

<sup>(</sup>١) سورة النساء: الآية ١٨.

ومن هنا وبعد الالتزام بالشروط المذكورة تتحقق التوبة النصوح، وهي نقطة البداية للتحرك إلى الله تعالى.

وما أجمل أن يكون المرء قريباً من ربه بعد أن كان بعيداً منه، فيتذوّق طعم القرب والمناجاة، بعد أن ذاق مرارة البعد والجفاء، فيجيب داعي الله مسارعاً إلى الدخول في عداد الصالحين، ملبياً نداء الحق تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إلى اللهِ تَوْبَةً نَصُوحًا ﴿ اللهِ تَوْبَهُ اللهِ اللهِ تَوْبَهُ اللهِ تَوْبَهُ اللهِ اللهِ تَوْبَهُ اللهُ عَلَيْهُ اللهِ اللهِ تَوْبُوا إلى اللهِ اللهِ اللهِ تَوْبَهُ اللهِ اللهُ اللهُ اللهِ تَوْبُوا إلى اللهِ اللهِ اللهِ اللهِ تَوْبُوا إلى اللهِ اللهُ اللهِ اللهِ اللهِ اللهِ اللهِ اللهِ اللهِ اللهُ اللهِ الله

ومن تمام التوبة التوجه إلى الله تعالى بقلب سليم، والإقبال على الأعمال الصالحة والابتعاد عن الأعمال المحرمة، وكل ما له صلة بالمعاصي والخطايا، وأن يختار الرفقاء الصالحين ومحالس الوعظ وتعلم الأحكام الشرعية، لاسيما الابتلائية منها والالتزام بأدائها.

قال تعالى: ﴿إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّءَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾(٢).

وورد في الدعاء عن الإمام زين العابدين (عليه السلام):

إلهِي أَنْتَ الَّذي فَتَحْتَ لِعِبادِكَ بَابَاً إلى عَفْوِكَ سَمَّيْتَهُ التَّوْبَةَ، فَقُلْتَ: ﴿تُوبُوا إلى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحاً ﴾، فَما عُذْرُ مَنْ أَغْفَلَ دُحُولَ الْبابِ بَعْدَ فَتْحِهِ.

<sup>(</sup>١) سورة التحريم: الآية ٨.

<sup>(</sup>٢) سورة الفرقان: الآية ٧٠.

## آثار التوبة النصوح

من المعلوم أن العبودية مراتب ودرجات، ولعل أبرز درجات الرقي والكمال في مجال العبودية التوبة، فهي من أبرز مصادق العبودية والرجوع إليه تعالى بعد فراق وغياب.

والتوبة هي خروج من غياهب الجهل إلى مدارك العلم، ومن لجم الظلمات إلى عالم النور، ومن منزل الشيطان إلى ساحة الرحمن، ومن رق عبودية الهوى إلى إخلاص الدين لله تعالى، ومن بحور الذنوب والمعاصي إلى منازل الكرامة والتقى، ومن العماية إلى الهداية، ومن الضلال إلى الرشد ومن الجنون إلى عالم العقل والحكمة والرشد، ومن العلل والسقم إلى الشفاء والراحة، ومن الألم إلى الارتياح ومن الجزع إلى الصبر ومن التجبر والتكبر إلى الخضوع والتذلل بين يديه تعالى.

وفي هذا الميدان الفسيح يطل علينا أمير المؤمنين (عليه السلام) لينقلنا إلى عالم الهداية والورع بقوله المبارك من خطبة كريمة له فيقول (عليه السلام):

(لا شرفَ أعلى مِنَ الإسلامِ، ولا كَرَمَ أعزُ من التقوى، ولا معْقِلَ أحرَزُ من الوَرَعِ، ولا شرفَ أعلى مِنَ الإسلامِ، ولا شَفيعَ أنجحُ من التوبةِ، ولا لباسَ أجَملُ مِنَ العافيةِ، ولا وقايةَ أمنعُ من السلامَةِ، ولا مالَ أذهبُ بالفاقةِ من الرضا والقناعَةِ، وَمن اقتَصَرَ على بُلغَةِ الكَفافِ فقد

انْتَظَمَ الراحَةَ، وتَبَوِّأُ خفضَ الدَّعة، ألا وإنَّ الرغَّبةَ مِفتاحُ التعبِ، والاحتكارَ مَطيَّةُ النَّصَبِ، والخسكُ آفةُ الدينِ؛ والحرصَ داع للتَقَحُّمِ في الذنوب)(١).

فهلا اتعظنا بكلام الإمام (وهو إمام الكلام) واتبعنا النهج الذي خطه لنا وسار عليه الصالحون وجعلناه نصب أعيننا، فإن الله تعالى غفور رحيم ولكنه تعالى في نفس الوقت شديد العقاب.

غفور رحيم لعباده الذين يقرون بذنوبهم ويعترفون بخطاياهم ثم يتوبون إليه (عز اسمه)، ويعقبون توبتهم بالندم والعمل الصالح.

وشديد العقاب لمن تكبر على الله وطغى ثم أبى التوبة وأصر على ذنبه تمرداً وعصياناً، ومن تمام نهج الأنبياء والمرسلين والأوصياء والصالحين من عباده عبادة الله بين الخوف والرجاء الخوف من عذابه وسخطه والرجاء لرحمته وثوابه.

قال تعالى: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَبَّهُمْ يُنفِقُونَ﴾ (٢).

ورد عن النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله) قال: "إن لله تعالى ملكا ينزل في كل ليلة فينادي: يا أبناء العشرين جدوا واجتهدوا، ويا أبناء الثلاثين لا تغرنكم الحياة الدنيا، ويا أبناء الاربعين ماذا أعددتم للقاء ربكم؟ ويا أبناء الخمسين أتاكم النذير، ويا أبنا الستين أنتم زرع آن حصاده، ويا أبناء السبعين نودي لكم فأجيبوا، ويا أبناء

<sup>(</sup>١) الكافي: ج٨، ص١٩، جزء من خطبة الوسيلة.

<sup>(</sup>٢) سورة السجدة: الأية ١٦.

الثمانين أتتكم الساعة وأنتم غافلون، ثم يقول: لولا عباد ركّع، ورجال خشّع، وصبيان رضّع، وأنعام ربّع، لصبّ عليكم العذاب صبّاً"(١).

كم أهلكت الذنوب من الامم والشعوب الماضية فهل بقيت لهم من باقية؟ قال تعالى: ﴿كُمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ حَبِيراً بَصِيراً ﴿ (٢).

إن أثر التوبة هو إزالة السيئات النفسانية التي تحر الإنسان إلى الشقاء في حياته الأولى والأخرى فيرجع التائب بعد ندمه وعزمه مع الترك في المستقبل أبيض السريرة كيوم ولدته أمه وبالتالي يسقط عنه العقاب.

وأما الأحكام الشرعية المترتبة على الأعمال السالفة فتبقى على حالها، إذ ليس للتوبة تأثير إلا في إصلاح النفس وإعدادها للسعادة الأخروية، ولذلك يجب الخروج عن مظالم العباد أولاً وتدارك ما فات من الفرائض ثانياً.

فإن السيئة العارضة على النفس بسبب هضم حقوق الناس لا ترتفع إلا برضاهم، لأنه سبحانه احترم حقوقهم في أموالهم وأعراضهم ونفوسهم.

قال المفيد (رحمه الله):

إن من شرط التوبة إلى الله سبحانه من مظالم العباد الخروج إلى المظلومين من حقوقهم بأدائها إليهم أو باستحلالهم منها على طيبة النفس بذلك والاختيار له،

<sup>(</sup>١) مستدرك الوسائل: ج١١، ص١٥٧.

<sup>(</sup>٢) سورة الاسراء: ١٧.

فمن عدم منهم صاحب المظلمة وفقده خرج إلى أوليائه من ظلامته أو استحلهم منها على ما ذكرناه، ومن عدم الأولياء حقق العزم على الخروج إليهم متى وجدهم واستفرغ الوسع في ذلك بالطلب في حياته والوصية له بعد وفاته، ومن جهل أعيان المظلومين أو مواضعهم حقق العزم والنية في الخروج من الظلامة إليهم متى عرفهم وجهد وأجهد نفسه في التماسهم، فإذا حاف فوت ذلك بحضور أجله وصى به على ما قدمناه، ومن لم يجد طولاً لرد المظالم سأل الناس الصلة له والمعونة على ما يمكنه من ردها أو آجر نفسه إن نفعه ذلك وكان طريقاً إلى استفادة ما يخرج به من المظالم إلى أهلها.

والجملة في هذا الباب أنه يجب على الظالمين استفراغ الجهد مع التوبة في الخروج من مظالم العباد، فإنه إذا علم الله ذلك منهم قبل توبتهم وعوض المظلومين عنهم إذا عجز التائبون عن رد ظلاماتهم، وإن قصر التائبون من الظلم فيما ذكرناه كان أمرهم إلى الله عز وجل فإن شاء عاقبهم وإن شاء تفضل عليهم بالعفو والغفران، وعلى هذا إجماع أهل الصلاة من المتكلمين والفقهاء. (1)

ولأجل ذلك قال أمير المؤمنين (عليه السلام):

(وَالثَّالِثُ أَنْ تُؤَدِّيَ إِلَى الْمَحْلُوقِينَ حُقُوقَهُمْ حَتَّى تَلْقَى اللَّهَ أَمْلَسَ لَيْسَ عَلَيْكَ تَبِعَةٌ وَالرَّابِعُ أَنْ تَعْمِدَ إِلَى كُلِّ فَرِيضَةٍ عَلَيْكَ ضَيَّعْتَهَا فَتُؤَدِّيَ حَقَّهَا) (٢).

<sup>(</sup>١) أوائل المقالات في المذاهب والمختارات: ص٨٧.

<sup>(</sup>٢) بهج الصباغة في شرح نهج البلاغة: الحكمة (٢١).

والمتبادر من الآيات والروايات أن التوبة بنفسها مسقطة للعقاب بقوله سبحانه:

﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١).

ومن هنا يظهر لنا مقام التوبة وأثرها على الفرد والمجتمع وما تجره من آثار إيجابية في الدنيا والآخرة، والعبد المؤمن دائماً وأبداً يسعى لنيل رضا بارئه وتحصيل الطاعة والاعتراف والإقرار بذنوبه وخطاياه بين يدي رب العزة والجلال، وهذا من مقامات ومنازل العبودية لعباد الله الصالحين.

<sup>(</sup>١) سورة الأنعام: الآية ٥٤.

#### التوبة الجامعة للشرائط مقبولة

حلق الله القلوب نقية فكل مولود يولد على الفطرة وإنما تحصل كدورة فيها من غبرة الذنوب وظلمتها ولا يحرق هذه الكدرة إلا نار الندم، فإن نور الحسنة يمحو من وجه القلب ظلمة السيئة، وأنه لا طاقة لظلمة المعاصى مع نور الحسنات، كما لا طاقة لظلام الليل مع نور النهار وكدورة الوسخ مع بياض الصابون، فكما إن الملك لا يقبل ان يلبس لباساً وسخاً، فكذلك القلب المظلم لا يقبله الله تعالى لأن يكون في جواره، وكما إن استعمال الثوب في الأعمال الخسيسة يوسخ الثوب وغسله بالصابون والماء الحار ينظفه لا محالة فاستعمال القلب في الشهوات يوسخ القلب وغسله بماء الدموع وحرقة الندم ينظفه ويطهره ويزكيه، وكل قلب زكبي طاهر فهو مقبول، كما إن كل ثوب نظيف فهو مقبول فإنما علينا التزكية والتطهير. فأما القبول فمبذول قد سبق به القضاء الأزلى، فقد قال الحق تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَّكَّاهَا ﴿ (١). وهذا البيان كاف عند ذوي البصائر في قبول التوبة، ولكنا نعضد جناحه بنقل الآيات والأخبار والآثار، فقد قال تعالى: ﴿غَافِرِ الذُّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾(٢)، وقال أيضاً: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ ﴾ (٢)، إلى غير ذلك من آيات الكتاب العزيز .

(١) سورة الشمس: الآية ٩.

<sup>(</sup>٢) سورة غافر: الأية ٣.

<sup>(</sup>٣) سورة الشورى: الآية ٢٤.

وعن محمد بن مسلم عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: ((يا محمد بن مسلم ذنوب المؤمن إذا تاب منها مغفورة له فليعمل المؤمن لما يستأنف بعد التوبة والمغفرة، أما والله انحا ليست إلا لأهل الإيمان. قلت: فإن عاد بعد التوبة والاستغفار من الذنوب وعاد في التوبة. فقال: يا محمد بن مسلم أترى العبد المؤمن يندم على ذنبه ويستغفر منه ويتوب ثم لا يقبل الله توبته؟ قلت: فإن فعل ذلك مراراً يذنب ثم يتوب ويستغفر؟ فقال: كلما عاد المؤمن بالاستغفار والتوبة عاد الله عليه بالمغفرة، وإن الله غفور رحيم يقبل التوبة ويعفو عن السيئات، فإياك أن تقنط المؤمنين من رحمة الله)(١).

وعن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: ((العبد المؤمن إذا أذنب ذنباً أجله الله سبع ساعات فإن استغفر الله لم يكتب عليه شيء، وإن مضت الساعات ولم يستغفر كتبت عليه سيئة، وإن المؤمن ليذكر ذنبه بعد عشرين سنة حتى يستغفر ربه فيغفر له، وإن الكافر لينساه من ساعته))(٢).

<sup>(</sup>١) الكافي: ج٢، ص٤٣٤ تحت رقم ٦.

<sup>(</sup>٢) نفس المصدر: ج٢، ص٤٣٧ تحت رقم ٦.

<sup>(</sup>٣) نفس المصدر: ج٢، ص٦٢٦ تحت رقم٤.

وعن أبي عبد الله أو عن أبي جعفر (عليهما السلام) قال: ((إن آدم (عليه السلام) قال: يا رب سلطت علي الشيطان وأجربته مني مجرى الدم فاجعل لي شيئا، فقال: يا آدم جعلت لك أن من هم من ذريتك بسيئة لم تكتب عليه، فإن عملها كتبت عليه سيئة ومن هم منهم بحسنة فإن لم يعملها كتبت له حسنة فإن هو عملها كتبت له عشرا، قال: يا رب زدني، قال: جعلت لك أن من عمل منهم سيئة ثم استغفر له غفرت له، قال: يا رب زدني، قال: جعلت لحم التوبة أو قال: بسطت لحم التوبة حتى تبلغ النفس هذه، قال: يا رب حسبي))(۱).

عن معاوية بن وهب قال: ((خرجنا إلى مكة ومعنا شيخ متألّه متعبّد لا يعرف هذا الأمريتم الصلاة في الطريق ومعه ابن أخ له، فمرض الشيخ فقلت لابن أخيه: لو عرضت هذا الأمر على عمك لعل الله أن يخلصه، فقال كلهم: دعوا الشيخ حتى يموت على حاله فإنه حسن الهيئة، فلم يصبر ابن أخيه حتى قال له: يا عم إن الناس ارتدوا بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله) إلا نفراً يسيراً، وكان لعلي بن أبي طالب (عليه السلام) من الطاعة ما كان لرسول الله (صلى الله عليه وآله) وكان بعد رسول الله الحق والطاعة له، قال: فتنفس الشيخ وشهق وقال: أنا على هذا وخرجت نفسه. فدخلنا على أبي عبد الله (عليه السلام) فعرض على بن السري هذا الكلام على أبي عبد الله (عليه السلام) فقال: هو رجل من أهل الجنة، قال له على بن السري:

(١) نفس المصدر: ج٢، ص٦٢٧ تحت رقم٥.

<sup>(</sup>٢) نفس المصدر: ج٢، ص٤٤٠ تحت رقم ١.

نهج التائبين .....

إنه لم يعرف شيئاً من هذا غير ساعته تلك!؟ قال: فتريدون منه ماذا؟ قد دخل والله الجنة))(١).

<sup>(</sup>١) نفس المصدر: ج٢، ص٤٤٠ تحت رقم ٣.

### الذنوب التي يجب التوبة منها

إن التوبة - كما تقدم - هي ترك الذنب ولا يمكن ترك شيء إلا بعد معرفته وإذا كانت التوبة واجبة كانت مقدمتها - وهي معرفة الذنوب - واجبة، لأن مقدمة الواجب واجبة، والذنب عبارة عن كل ما يخالف أمر الله في ترك أو فعل وتفصيل ذلك يستدعي بيان جميع التكاليف، وليس ذلك غرضنا في هذا الكتاب، ولكنا نشير إلى مجملها باختصار فنقول وعلى الله نتوكل.

إن للإنسان أخلاقاً كثيرة يذكرها علماء الأخلاق لكن تنحصر مثيرات الذنوب في أربع صفات، بعضها صفات ربوبية وبعضها شيطانية وبعضها صفات بهيمية وبعضها صفات سبعية، وذلك لأن طينة الإنسان عجنت من أحلاط مختلفة فاقتضى كل واحد من الأخلاط أثراً معيناً، كما أن السكنجبين وهو معجون من أخلاط هي السكر والخل والزعفران فيقتضي كل واحد منها أثراً يختلف عن آثار الاخلاط الأخرى، أما الصفات التي لا يصح أن يتحلّى بحا الإنسان مثل التكبر والتجبر وحب المدح والثناء وحب العز والغني وحب دوام البقاء وطلب الاستعلاء على الكافة حتى كأنه يريد أن يقول: أنا ربكم الأعلى، وهذا يتشعب منه جملة من كبائر الذنوب غفل عنها الخلق ولم يعدوها ذنوباً وهي المهلكات العظيمة التي هي كالأمهات لأكثر المعاصى، الثانية هي الصفات الشيطانية التي منها يتشعب الحسد والبغي والحيلة والخداع والأمر بالفساد والمنكر وفيه يدخل الغش والنفاق والدعوة إلى البدع والضلالة، الثالثة الصفة البهيمية ومنها يتشعب الشره والحرص على تحصيل شهوة البطن والفرج، ومنه يتشعب الزبى واللواط والسرقة وأكل مال الأيتام وجمع الخطام لأجل الشهوات، الرابعة الصفة السبعية ومنها يتشعب الغضب والحقد والتهجم على الناس بالضرب والشتم والقتل واستهلاك الأموال.

وهذه الصفات تتدرج في الحصول فالصفة البهيمية هي التي تغلب في أول الأمر ثم تتلوها الصفة السبعية ثانياً، ثم إذا اجتمعت استعملنا العقل في الخداع والمكر والحيلة وهي من الصفات الشيطانية.

كما إن بعض الصفات كالفخر والعز والعلو والكبرياء والاستيلاء على جميع الخلق تعتبر من أمهات الذنوب ومنابعها، ثم تتفجر الذنوب من هذه المنابع على الجوارح فبعضها في القلب خاصة كالكفر والبدعة والنفاق وإضمار السوء للناس وبعضها على العين والسمع وبعضها على اللسان وبعضها على البطن والفرج وبعضها على اليدين والرجلين وبعضها على جميع البدن، ولا حاجة لبيان تفصيل ذلك وقد كفتنا كتب الأخلاق مؤنته.

ويمكن تقسيم الذنوب إلى ثلاثة أقسام، بحسب ما ورد في بعض الروايات منها: ما رواه ثقة الإسلام الكليني (ره) عن بعض أصحابنا قال: ((صَعِدَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ (عليه السَّلام) بِالْكُوفَةِ الْمِنْبَرَ، فَحَمِدَ اللَّهَ وأَتْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: "أَيُّهَا النَّاسُ: "إِنَّ الذُّنُوبَ ثَلاَثَةٌ. ثُمَّ أَمْسَكَ ..

فَقَالَ لَهُ حَبَّةُ الْعُرَنِيُّ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، قُلْتَ الذُّنُوبُ ثَلَاثَةٌ، ثُمَّ أَمْسَكْتَ؟!

فَقَالَ: "مَا ذَكَرْتُهَا إِلَّا وَأَنَا أُرِيدُ أَنْ أُفَسِّرَهَا، وَلَكِنْ عَرَضَ لِي بُهْرٌ حَالَ بَيْنِي وَبَيْنَ الْكَلام.

نَعَمْ الذُّنُوبُ ثَلَاثَةٌ: فَذَنْبٌ مَغْفُورٌ، وَذَنْبٌ غَيْرُ مَغْفُورٍ، وذَنْبٌ نَرْجُو لِصَاحِبِهِ وَخَافُ عَلَيْهِ".

قَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَبَيِّنْهَا لَنَا.

قَالَ: "نَعَمْ.

أَمَّا الذَّنْبُ الْمَغْفُورُ فَعَبْدٌ عَاقَبَهُ اللَّهُ عَلَى ذَنْبِهِ فِي الدُّنْيَا، فَاللَّهُ أَحْلَمُ وأَكْرَمُ مِنْ أَنْ يُعَاقِبَ عَبْدَهُ مَرَّتَيْن.

وَأَمَّا الذَّنْبُ الَّذِي لَا يُغْفَرُ، فَمَظَا لِمُ الْعِبَادِ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ، إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وتَعَالَى إِذَا بَرَرَ لِخَلْقِهِ أَقْسَمَ قَسَماً عَلَى نَفْسِهِ، فَقَالَ: وعِزَّتِي وجَلَالِي لَا يَجُوزُنِي ظُلْمُ ظَالِمٍ ولَوْ كَنْ بِكُفِّ، ولَوْ نَطْحَةٌ مَا بَيْنَ الْقَرْنَاءِ إلى الجُمَّاء، فَيَقْتَصُّ كَفُّ بِكَفِّ، ولَوْ نَطْحَةٌ مَا بَيْنَ الْقَرْنَاءِ إلى الجُمَّاء، فَيَقْتَصُّ لِلْعِبَادِ بَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ حَتَّى لَا تَبْقَى لِأَحَدٍ عَلَى أَحَدٍ مَظْلِمَةٌ، ثُمَّ يَبْعَثُهُمْ لِلْحِسَابِ.

وَأَمَّا الذَّنْبُ الثَّالِثُ، فَذَنْبٌ سَتَرَهُ اللَّهُ عَلَى خَلْقِهِ ورَزَقَهُ التَّوْبَةَ مِنْهُ، فَأَصْبَحَ خَائِفاً مِنْ ذَنْبِهِ رَاحِياً لِرَبِّهِ، فَنَحْنُ لَهُ كَمَا هُوَ لِنَفْسِهِ، نَرْجُو لَهُ الرَّحْمَةَ وَنَخَافُ عَلَيْهِ الْعَذَابَ)(١).

<sup>(</sup>١) نفس المصدر: ج٢، ص٤٤٣.

وسُئِلَ أبو جعفر (عليه السلام): عن رجل أُقيم عليه الحد في الرجم أيعاقب عليه في الآخرة؟ فقال: إن الله أكرم من ذلك))(١).

(١) نفس المصدر.

# الكبائر في روايات أهل البيت (عليهم السلام)

عن أبي عبدالله (عليه السلام): في قول الله عز وجل: ﴿إِن بَحْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ ثُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّمَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴾(١) قال: الكبائر، التي أوجب الله عز وجل عليها النار(٢).

عن ابن محبوب قال: ((كتب معي بعض أصحابنا إلى أبي الحسن (عليه السلام) يسأله عن الكبائر كم هي وما هي؟ فكتب: الكبائر: من اجتنب ما وعد الله عليه النار كفر عنه سيئاته إذا كان مؤمناً والسبع الموجبات: قتل النفس الحرام وعقوق الوالدين، وأكل الربا، والتعرب بعد الهجرة وقذف المحصنات، وأكل مال اليتيم، والفرار من الزحف))(٢).

وعن محمد بن مسلم عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: ((سمعته يقول: الكبائر سبع: قتل المؤمن متعمداً وقذف المحصنة، والفرار من الزحف، والتعرب بعد الهجرة، وأكل مال اليتيم ظلماً، وأكل الربا بعد البينة، وكل ما أوجب الله عليه النار))(1).

عن عبد الله بن سنان قال: ((سمعت أبا عبد الله (عليه السلام) يقول: إن من الكبائر عقوق الوالدين، واليأس من روح الله، والأمن لمكر الله))(٥).

<sup>(</sup>١) سورة النساء: الآية ٣١.

<sup>(</sup>٢) الكافى: ج٢، ص٢٧٦ تحت رقم ١.

<sup>(</sup>٣) الكافي: ج٢، ص٢٧٦ تحت رقم ٢.

<sup>(</sup>٤) الكافي: ج٢، ص٢٧٧ تحت رقم ٣.

<sup>(</sup>٥) نفس المصدر: ص٢٧٨ تحت رقم ٤.

عن إسحاق بن عمار، ((عن أبي عبدالله (عليه السلام) في قول الله عز وجل: ﴿الذين يَجْتَنبُونَ كَبَائُر الْإِثْمُ والفُواحِشُ إِلَا اللَّمَمُ ﴿(١)، قال: الفُواحِشُ الزي والسرقة، واللَّمَم: الرَّحِل يلم بالذنب فيستغفر الله منه.

قلت: بين الضلال والكفر منزلة؟ فقال: ما أكثر عرى الإيمان))(١).

عن مسعدة بن صدقة قال: ((سمعت أبا عبد الله (عليه السلام) يقول: الكبائر: القنوط من رحمة الله، واليأس، من روح الله، والأمن من مكر الله، وقتل النفس التي حرّم الله، وعقوق الوالدين، وأكل مال اليتيم ظلماً، وأكل الربا بعد البينة، والتعرب بعد الهجرة، وقذف المحصنة، والفرار من الزحف، فقيل له: أرأيت المرتكب للكبيرة يموت عليها، أتخرجه من الإيمان، وإن عذب بها فيكون عذابه كعذاب المشركين، أوله انقطاع؟ قال: يخرج من الإسلام إذا زعم أنها حلال ولذلك يعذب أشد العذاب وإن كان معترفاً بأنها كبيرة وهي عليه حرام وأنه يعذب عليها وأنها غير حلال، فإنه معذب عليها وهو أهون عذابا من الأول ويخرجه من الإيمان ولا يخرجه من الإسلام))(٣).

وعن الأصبغ بن نباتة قال: جاء رجل إلى أمير المؤمنين (صلوات الله عليه) فقال: يا أمير المؤمنين إن ناساً زعموا أن العبد لا يزيي وهو مؤمن ولا يسرق وهو مؤمن ولا

(١) سورة النجم: الآية ٣٢.

<sup>(</sup>٢) الكافي: ج٢، ص٢٧٧ تحت رقم ٧.

<sup>(</sup>٣) وسائل الشيعة: ج١٥، ص٣٢٤ تحت رقم ١٣.

يشرب الخمر وهو مؤمن ولا يأكل الربا وهو مؤمن ولا يسفك الدم الحرام وهو مؤمن، فقد ثقل علي هذا وحرج منه صدري حين أزعم أن هذا العبد يصلي صلاتي ويدعو دعائي ويناكحني وأناكحه ويوارثني وأوارثه وقد خرج من الإيمان من أجل ذنب يسير أصابه، فقال أمير المؤمنين (صلوات الله عليه): صدقت سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله) يقول، والدليل عليه كتاب الله.

خلق الله عز وجل الناس على ثلاث طبقات وأنزلهم ثلاث منازل وذلك قول الله عز وجل في الكتاب: أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة والسابقون، فأما ما ذكر من أمر السابقين فإنهم أنبياء مرسلون وغير مرسلين، جعل الله فيهم خمسة أرواح: روح القدس وروح الإيمان وروح القوة وروح الشهوة وروح البدن، فبروح القدس بعثوا أنبياء مرسلين وغير مرسلين وبما علموا الأشياء، وبروح الإيمان عبدوا الله ولم يشركوا به شيئاً، وبروح القوة جاهدوا عدوهم وعالجوا معاشهم، وبروح الشهوة أصابوا لذيذ الطعام ونكحوا الحلال من شباب النساء، وبروح البدن دبوا ودرجوا، فهؤلاء مغفور لهم مصفوح عن ذنوبهم، ثم قال: قال الله عز وجل: ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضِ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ۚ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ (١)، ثم قال: في جماعتهم ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحِ مِّنْهُ ﴾، يقول: أكرمهم بها ففضلهم على من سواهم، فهؤلاء مغفور لهم مصفوح عن ذنوهم. ثم ذكر أصحاب الميمنة وهم المؤمنون حقا بأعياهم، جعل الله فيهم أربعة

<sup>(</sup>١) سورة البقرة: الأية ٢٥٣.

أرواح: روح الإيمان وروح القوة وروح الشهوة وروح البدن، فلا يزال العبد يستكمل هذه الأرواح الأربعة حتى تأتى عليه حالات، فقال الرجل: يا أمير المؤمنين ما هذه الحالات؟ فقال: أما أولاهن فهو كما قال الله عز وجل: ﴿ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمِ شَيْئًا ﴿(١)، فهذا ينتقص منه جميع الأرواح وليس بالذي يخرج من دين الله، لأن الفاعل به رده إلى أرذل عمره فهو لا يعرف للصلاة وقتاً ولا يستطيع التهجد بالليل ولا بالنهار ولا القيام في الصف مع الناس، فهذا نقصان من روح الإيمان وليس يضره شيئاً؛ ومنهم من ينتقص منه روح القوة، فلا يستطيع جهاد عدوه ولا يستطيع طلب المعيشة ومنهم من ينتقص منه روح الشهوة فلو مرّت به أصبح بنات آدم يحن إليها ولم يقم وتبقى روح البدن فيه فهو يدب ويدرج حتى يأتيه ملك الموت فهذا الحال خير، لأن الله عز وجل هو الفاعل به وقد تأتى عليه حالات في قوته وشبابه فَيَهمُ بالخطيئة فيشجعه روح القوة ويزين له روح الشهوة ويقوده روح البدن حتى توقعه في الخطيئة، فإذا لامسها نقص من الإيمان وتفصى منه فليس يعود فيه حتى يتوب، فإذا تاب تاب الله عليه وإن عاد أدخله الله نار جهنم.

<sup>(</sup>١) سورة الحج: الأية ٥.

فأما أصحاب المشأمة فهم اليهود والنصارى يقول الله عز وجل: ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ﴾ (١) ، يعرفون محمداً والولاية في التوراة والإنجيل كما يعرفون أبناءهم في منازلهم ﴿ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحُقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ \* الْحُقُّ مِن رّبّكَ ﴾ (أنك الرسول إليهم) ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ (٢) ، فلما جحدوا ما عرفوا ابتلاهم [الله] بذلك فسلبهم روح الإيمان وأسكن أبدانهم ثلاثة أرواح روح القوة وروح الشهوة وروح البدن، ثم أضافهم إلى الأنعام، فقال: ﴿ إِنْ هُمْ إِلا كَالْأَنْعَامِ ﴾ (١) ، لأن الدابة إنما تحمل بروح القوة وتعتلف بروح الشهوة وتسير بروح البدن، فقال [له] السائل: أحييت قلبي بإذن الله يا أمير المؤمنين)) (١).

(١) سورة البقرة: الآية ١٤٦.

<sup>(</sup>١) سورة البقرة: الآية ١٤١. (٢) سورة البقرة: الآية ١٤٧.

<sup>(</sup>٣) سورة الفرقان: الآية ٤٤.

<sup>(</sup>٤) الكافي: ج٢ ص ٢٨٣-٢٨٤ تحت رقم١٦.

نهج التائبين .......ده......ده......ده......

#### آثارالذنوب

لا شك أن للذنوب والمعاصي أضراراً كبيرة على الفرد والمحتمع وآثارها وحيمة في الدنيا والآخرة، والعاقل هو من يعلم شؤم المعصية ومضارها، فلا يجعل للشيطان عليه سبيلاً فيقطع جميع الطرق التي تربط الشيطان بالإنسان.

ويجعل الله تعالى فقط وفقط نصب عينيه ويقبل عليه بقلب سليم وعقل واع ونفس مطمئنة وأن يُحَكِمَنَ عقله على جميع جوارحه، ولا يسمحن للهوى والنفس الأمارة بالسوء أن يتحكما به.

والإخلاص أنفع الادوية لمن أراد التوبة الصادقة ومجاهدة النفس في سبيل الله عز وجل.

وليبشروا بالخير أولئك الذين يكابدون أنفسهم ويلزمونها الطاعة ويمنعونها عن المعصية، فإن الله كريم جواد وجزائه وعطائه بلا حدود، والطاعة هي حصن الله الأعظم وحرزه الآمن الذي من دخله كان في أمن الله وأمانه.

وليجعلوا الدعاء سلاحهم في كل يسر وعسر، فإنه الوسيلة إلى الله والسبب الحقيقي في دفع كيد الشيطان، والحصن الذي يُلتجأ اليه خوفاً من السقوط في مكائده.

فقد ورد عن النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله): ((من أراد أن لا يوقفه الله يوم القيامة على قبيح أعماله، ولا ينشر له ديوان، فليقرأ هذا الدعاء في دبر كل صلاة،

وهو: اللهم إن مغفرتك أرجى من عملي، وإن رحمتك أوسع من ذنبي، اللهم إن كان ذنبي عندك عظيماً فعفوك أعظم من ذنبي، اللهم إن لم أكن أهلاً أن ترحمني فرحمتك أهل أن تبلغني وتسعني، لأنها وسعت كل شيء برحمتك يا أرحم الراحمين)). (١)

كما وردت بعض الأدعية المباركة عن طريق النبي وآله (صلوات الله عليهم) لكفاية كيد وشر إبليس (لعنه الله).

نذكر منها هذا الدعاء تعميماً للفائدة ودفعاً لشر الشيطان الرجيم:

((اللهم إن إبليس عبد من عبيدك يراني من حيث لا أراه وأنت تراه من حيث لا يراك وأنت أقوى على أمره كله وهو لا يقوى على شيء من أمرك اللهم فأنا أستعين بك عليه يا رب فإني لا طاقة لي به ولا حول ولا قوة لي عليه إلا بك يا رب، اللهم إن أرادني فأرده وإن كادني فكده واكفني شره واجعل كيده في نحره برحمتك يا أرحم الراحمين وصلى الله على محمد وآله الطاهرين)). (٢)

أما من نسي الله تعالى واتكل على الجوانب المادية، فإنه لن يحصد سوى الندامة والخسران والذل والهوان، وتتلاقفه الشياطين من كل جانب، لتفسد فطرته وتستعمله في خراب الدنيا وخسران الآخرة.

فما الذي أخرج أبوينا من الجنة (دار النعيم) إلى دار الفناء والآلام والأحزان والمصائب.

<sup>(</sup>١) بحار الأنوار: ج ٨٣، ص٣٨.

<sup>(</sup>٢) المجتنى، لابن طاووس: ص٢١.

وما الذي أخرج إبليس من ملكوت السماء وطرده بعد أن كان طاووس الملائكة، وما الذي جعله بعيداً بعد أن كان قريباً، وملعوناً بعد أن كان مرحوماً وقبيحاً بعد أن كان جميلاً، وما الذي جعله من أهل النار بعد أن كان من أهل الجنة.

وما الذي أبدل إيمانه كفران فهان على الله تعالى غاية الهوان، وما الذي أغرق أهل الأرض كلهم، فلم ينج من الغرق إلا نوح (عليه السلام) ومن نجا معه من المؤمنين. وما الذي سلط الريح على قوم عاد فأهلكهم بها، فتركتهم كأنهم أعجاز نخل خاوية.

وما الذي أهلك قوم ثمود وقوم لوط وقوم شعيب، وما الذي أغرق فرعون وقومه ثم باءوا بغضب من الله.

وما الذي أهلك القرون الأولى من بعد نوح، وما الذي بعث على بني إسرائيل العقاب والعذاب.

إنه العصيان وعدم إطاعة الرب وعدم الاستجابة لأنبياء الله ورسله والأوصياء والصالحين.

إنه التمرد على الأوامر الإلهية واتباع الهوى وعدم الامتناع عما نهى عنه الحق تعالى فكانت العاقبة كما ذُكر آنفاً.

قال تعالى: ﴿ وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ﴾ (١).

<sup>(</sup>١) سورة الشورى: الآية ٣٠.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴾(١).

ورد عن الإمام الصادق (عليه السلام): ((من يموت بالذنوب أكثر ممن يموت

بالآجال، ومن يعيش بالإحسان أكثر ممن يعيش بالأعمار)).(١)

أجارنا الله وإياكم من سوء المنقلب وسوء الخاتمة إنه سميع مجيب.

<sup>(</sup>١) سورة الانفطار: الآيات ١٣ ـ ١٤.

<sup>(</sup>٢) بحار الأنوار: ج ٥، ص ١٤٠.

# أضرار الذنوب والمعاصي

ذكر أهل العلم للمعاصي والذنوب أضراراً كثيرة نذكر منها:

١- حرمان نعمة العلم، لأنه نور يقذفه الله في القلب، وظلمة المعصية تطفأ ذلك النور.

٢. المعيشة الضنكى والوحشة في النفس بسبب الإعراض عن الله تعالى والوقوع في حبائل الشيطان. قال تعالى: ﴿ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكى ﴿(١).

٣. تتعسر بوجهه أيسر الأمور لعصيانه الرب العظيم، فلا توفيق ولا تسهيل.

٤- حرمان الطاعة ولذتها، بسبب قسوة القلب لتلوثه بالذنوب والمعاصي وازدياد
 الحُجُب والرين عليه فلا يفقه قولاً ولا يعى هداية.

٥ حرمان التوفيق في الدارين ومحق البركة، وزوال النعم وقصر العمر وكثرة موت الفحأة.

٦. وهن البدن وكثرة الابتلاءات والأمراض الروحية والبدنية.

٧- انعدام الغيرة وزوال الحياء وزوال النعم ونزول النقم ودحول الرعب في قلب العاصى.

٨. سوء العاقبة واستحقاق العذاب يوم القيامة بدحول النار.

٩. المعصية تورث الذل وتفسد العقل وتقسى القلب وتوجب اللعنة والهوان.

(١) سورة طه: الآية ١٢٤.

١٠. حرمان الإنسان للكثير من النعم الدنيوية والأخروية.

1. الذنوب والمعاصي تنشر الفساد في البر والبحر، قال تعالى: ﴿ طَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (١). وهناك الكثير من النتائج والاثار للذنوب والآثام لا تعد ولا تحصى وما ذكر كان من باب الإشارة إلى أبرزها وأكثرها وضوحاً، ومن ينظر بعين البصيرة جيداً يرى ما خفى على الآخرين.

<sup>(</sup>١) سورة الروم: الآية ٤١.

نهج التائبين ......

وأخيراً:

على الفرد المؤمن أن يتمسك بوصية الله (جل وعلا) لعباده من الأولين والآخرين، وأن يتقي الله حق تقاته لينال رضاه، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُواْ اللَّهَ﴾ (١).

<sup>(</sup>١) سورة النساء: الآية ١٣١.

# موعظة من الإمام علي بن الحسين (عليهما السلام)

عن سعيد بن المسيب قال: كان علي بن الحسين (عليه السلام) يعظ الناس ويزهدهم في الدنيا ويرغبهم في أعمال الآخرة بهذا الكلام في كل جمعة في مسجد رسول الله (صلى الله عليه وآله) وحفظ عنه وكتب كان يقول: ((أيها الناس اتقوا الله واعلموا أنكم إليه ترجعون فتجد كل نفس ما عملت في هذه الدنيا من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ويحذركم الله نفسه.

ويحك يا ابن آدم الغافل وليس بمغفول عنه، يا ابن آدم إن أجلك أسرع شيء إليك، قد أقبل نحوك حثيثا يطلبك (۱)، ويوشك أن يدركك وكأن قد أوفيت أجلك وقبض الملك روحك وصرت إلى قبرك وحيداً فرد إليك فيه روحك واقتحم عليك فيه ملكان ناكر ونكير لمسائلتك وشديد امتحانك، ألا وإن أول ما يسألانك عن ربك الذي كنت تعبده وعن نبيك الذي أرسل إليك وعن دينك الذي كنت تدين به وعن كتابك الذي كنت تتلوه وعن إمامك الذي كنت تتولاه، ثم عن عمرك فيما كنت أفنيته، ومالك من أين اكتسبته وفيما أنت أنفقته، فخذ حذرك وانظر لنفسك وأعد الجواب قبل الامتحان والمسائلة والاختبار فإن تك مؤمناً عارفاً بدينك، متبعاً للصادقين، موالياً لأولياء الله لقاك الله حجتك وأنطق لسانك بالصواب وأحسنت الجواب وبشرت بالرضوان والجنة من الله عز وجل واستقبلتك الملائكة بالروح والريحان

(١) أي مسرعاً، حريصاً.

وإن لم تكن كذلك تلجلج لسانك ودحضت حجتك وعييت عن الجواب<sup>(۱)</sup> وبشّرت بالنار واستقبلتك ملائكة العذاب بنزل من حميم وتصلية جحيم.

واعلم يا ابن آدم إن من وراء هذا أعظم وأفظع وأوجع للقلوب يوم القيامة، ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود، يجمع الله عز وجل فيه الأولين والآخرين ذلك يوم ينفخ في الصور وتبعثر فيه القبور (٢)، وذلك يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين وذلك يوم لا تقال فيه عثرة (٣)، ولا يؤخذ من أحد فدية ولا تقبل من أحد معذرة ولا لأحد فيه مستقبل توبة، ليس إلا الجزاء بالحسنات والجزاء بالسيئات، فمن كان من المؤمنين عمل في هذه الدنيا مثقال ذرة من خير وجده ومن كان من المؤمنين عمل في هذه الدنيا مثقال ذرة من خير وجده.

فاحذروا أيها الناس من الذنوب والمعاصي ما قد نحاكم الله عنها وحذركموها في كتابه الصادق والبيان الناطق، ولا تأمنوا مكر الله وتحذيره وتحديده عندما يدعوكم الشيطان اللعين إليه من عاجل الشهوات واللذات في هذه الدنيا، فإن الله عز وجل يقول: ﴿إِنَّ النَّهُ وَا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم

<sup>(</sup>١) التلجلج: التردد في الكلام. ودحضت حجته دحوضاً أي بطلت. وعبيت عن الجواب أي عجزت عنه.

 <sup>(</sup>۲) بعثرت الشيء إذا استخرجته وكشفته وبعثرت حوضي أي هدمته وجعلت أسفله أعلاه وسميت القيامة بالأزفة لأزوفتها أي لقربها إذا القلوب لدى الحناجر، فإنها ترتفع عن اماكنها فتلتصق بحلوقهم فلا تعود، فيتروحوا فلا تخرج فيستريحوا.

<sup>(</sup>٣) من الإقالة وهي نقض البيع. والعثرة: الزلة.

مُّبْصِرُونَ ﴾(١)، وأشعروا قلوبكم حوف الله وتذكروا ما قد وعدكم الله في مرجعكم إليه من حسن ثوابه كما قد خوفكم من شديد العقاب، فإنه من خاف شيئاً حذره ومن حذر شيئاً تركه ولا تكونوا من الغافلين المائلين إلى زهرة الدنيا الذين مكروا السيئات، فإن الله يقول في محكم كتابه: ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللَّهُ كِمِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ \* أَوْ يَأْخُذَهُمْ في تَقَلُّبهمْ فَمَا هُم مِمُعْجِزِينَ \* أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿ (٢). فاحذروا ما حذركم الله بما فعل بالظلمة في كتابه، ولا تأمنوا أن ينزل بكم بعض ما تواعد به القوم الظالمين في الكتاب والله لقد وعظكم الله في كتابه بغيركم، فإن السعيد من وعظ بغيره، ولقد أسمعكم الله في كتابه ما قد فعل بالقوم الظالمين من أهل القرى قبلكم، حيث قال: ﴿وَكُمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخرين، وإنما عني بالقرية أهلها حيث يقول: ﴿وأنشأنا بعدها قوما آخرين، فقال عز وجل: ﴿فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ ﴾ (يعني يهربون) قال: ﴿ لا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ ﴾ (فلما أتاهم العذاب) ﴿ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ \* فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ ﴾ ""، وأيم الله إن هذه عظة لكم وتخويف إن اتعظتم وخفتم، ثم رجع القول من الله في الكتاب على أهل المعاصى والذنوب فقال عز وجل:

<sup>(</sup>١) سورة الأعراف: الأية ٢٠١، أي لمم من الشيطان وطائف فاعل منه، يقال طاف يطيف طيفا فهو طائف

<sup>(</sup>٢) سورة النحل: الآيات ٤٤ ـ ٤٧. و(تخوف) أي تنقص.

<sup>(</sup>٣) سورة الأنبياء: الآيات ١٢ ـ ١٥.

﴿ وَلَئِن مَّسَتَّهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿ ( ) ، فإن قلتم: أيها الناس إن الله عز وجل إنما عنى بهذا أهل الشرك فكيف ذلك وهو يقول: ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا أَنَّ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا أَ وَكَفَى لِنَا حَاسِبِينَ ﴾ ( ) .

اعلموا عباد الله أن أهل الشرك لا ينصب لهم الموازين ولا ينشر لهم الدواوين، وإنما يحشرون إلى جهنم زمرا وإنما نصب الموازين ونشر الدواوين لأهل الإسلام.

فاتقوا الله عباد الله واعلموا أن الله عز وجل لم يحب زهرة الدنيا وعاجلها لأحد من أوليائه ولم يرغبهم فيها وفي عاجل زهرتها وظاهر بمجتها، وإنما خلق الدنيا وخلق أهلها ليبلوهم فيها أيهم أحسن عملاً لآخرته، وأيم الله لقد ضرب لكم فيه الأمثال وصرف الآيات لقوم يعقلون ولا قوة إلا بالله.

فازهدوا فيما زهدكم الله عز وجل فيه من عاجل الحياة الدنيا، فإن الله عز وجل يقول وقوله الحق: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحُيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَحَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَحَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنْ مُن المَّالَ الله من القوم بِالْأَمْسِ أَ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿ ""، فكونوا عباد الله من القوم بِالْأَمْسِ أَ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿ ""، فكونوا عباد الله من القوم

(١) سورة الأنبياء: الآية ٤٦.

<sup>(</sup>٢) سورة الأنبياء: الآية ٤٧.

<sup>(</sup>٣) سورة يونس: الآية ٢٤.

الذين يتفكرون ولا تركنوا إلى الدنيا فإن الله عز وجل قال لمحمد (صلى الله عليه وآله): ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إلى اللهِ عِلَى ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ ﴿(١) ولا تركنوا إلى زهرة الدنيا وما فيها ركون من اتخذها دار قرار ومنزل استيطان فإنحا دار بلغة ومنزل قلعة (٢) ودار عمل، فتزودوا الأعمال الصالحة فيها قبل تفرق أيامها وقبل الأذن من الله في خرابحا فكان قد أخربحا الذي عمرها أول مرة وابتدأها وهو ولي ميراثها، فأسأل الله العون لنا ولكم على تزود التقوى والزهد فيها، جعلنا الله وإياكم من الزاهدين في عاجل زهرة الحياة الدنيا، الراغبين لآجل ثواب الآخرة فإنما نحن به وله وصلى الله على محمد النبي وآله وسلم، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته))(٣).

(١) سورة هود: الآية ١١٣. أي: تطمئنوا إليهم وتسكنوا إلى قولهم.

<sup>(</sup>٢) أي ليس بمستوطن.

<sup>(</sup>٣) الكافي: ج٨، ص٧٣ ـ ٧٦.

### أسباب تحول الصغائر إلى كبائر

ذكر العلماء إن الذنوب الصغيرة تكبر لأسباب منها:

ا) الإصرار والمواظبة ولذلك قيل: لا صغيرة مع إصرار ولا كبيرة مع استغفار، فكبيرة واحدة تنصرم ولا يتبعها مثلها لو تصور ذلك كان العفو عنها أرجى من صغيرة يواظب العبد عليها. ومثال ذلك قطرات من الماء تتوالى في الوقوع على الحجر فتؤثر فيه وذلك القدر من الماء لو صب عليه دفعة واحدة لم يؤثر والأشياء تستبان بالأضداد، فإذا كان النافع من العمل هو الدائم وإن قل فالكثير المنصرم قليل النفع في تنوير القلب وتطهيره، فكذلك القليل من السيئات إذا دام عظم تأثيره في اظلام القلب، إلا أن الكبيرة قل ما يتصور التجريء عليها من دون سبق التجريء على الصغائر فقل ما يزني الزاني بغتة من غير سبق نظر محرم ومراودة ومقدمات، وقل ما يقتل بغتة من غير سبق معاداة، فكل كبيرة تكتنفها صغائر سابقة.

روي في الكافي عن أبي عبد الله (عليه السلام) أنه قال: ((لا صغيرة مع الإصرار ولا كبيرة مع الاستغفار))(١).

وعنه (عليه السلام) قال: ((لا والله لا يقبل شيئاً من طاعته على الإصرار على شيء من معاصيه))(١).

<sup>(</sup>١) الكافي: ج٢، ص٢٨٨ تحت رقم: ١.

<sup>(</sup>٢) الكافي: ج٢، ص٢٨٨ تحت رقم: ٣.

وعن الباقر (عليه السلام) ((في قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يُعِلَمُونَ ﴾ (١)، قال: الإصرار أن يذنب الذنب فلا يستغفر ولا يحدث نفسه بتوبة فذلك الإصرار)) (٢).

٢) ومنها أن يستصغر الذنب فإن العبد كل ما استعظمه من نفسه صغر عند الله وكل ما استصغر كبر عند الله، لأن استعظام الذنب يصدر عن نفور القلب وكراهيته له وذلك النفور والكراهية للذنب يمنعان من شدة التأثر به، بينما استصغار الذنب يكون بسبب حب الإنسان لذلك الذنب مما يوجب شدة تأثر القلب بظلام الذنب، ولذلك نجد أن الله تعالى لا يؤاخذنا بما نذنبه حال الغفلة فإن القلب لا يتأثر بما نفعله حال الغفلة، فقد ورد بسند صحيح عن حريز عن أبي عبدالله (عليه السلام): «قال قال رسول الله (صلّى الله عليه وآله): رفع عن أمّتي تسعة: الخطأ والنسيان وما أكرهوا عليه وما لا يعلمون وما لا يطيقون وما اضطرّوا إليه والحسد والطيرة والتفكّر في الوسوسة في الخلق ما لم ينطق بشفة» (٣).

وقد ورد العديد من الأحبار التي تبين ما تقدم نذكر منها:

(١) سورة آل عمران: الأية ١٣٥.

<sup>(</sup>٢) الكافي: ج٢، ص٢٨٨ تحت رقم: ٢.

<sup>(</sup>٣) الخصال: ٤١٧ / باب التسعة ح ٩، الوسائل ١٥: ٣٦٩ / أبواب جهاد النفس ب ٥٦، ح ١.

ما ورد عن زيد الشحام عن أبي عبد الله (عليه السلام): ((اتقوا المحقرات من الذنوب فإخّا لا تغفر، قلت: وما المحقرات؟ قال: الرجل يذنب الذنب فيقول: طوبى لي إن لم يكن لي غير ذلك))(١).

وعن سماعة قال: سمعت أبا الحسن - الإمام الكاظم - (عليه السلام) يقول: ((لا تستكثروا كثير الخير، ولا تستقلّوا قليل الذنوب فإنّ قليل الذنوب يجتمع حتى يكون كثيراً، وخافوا الله في السرحتى تعطوا من أنفسكم النصف))(٢).

وعن الصادق (عليه السلام): ((أن الله يحب العبد أن يطلب إليه في الجرم العظيم ويبغض العبد أن يستخف بالجرم اليسير))(٣).

٣) ومنها السرور بالصغيرة والفرح والتبجح بها وعد التمكن منها نعمة والغفلة عن كونه سبباً للشقاوة فكلما غلبت حلاوة الصغيرة عند العبد كبرت الصغيرة وعظم أثرها في تسويد قلبه، حتى إن من المذنبين من يتمدح بذنبه ويتبجح به لشدة فرحه بمقارفته إياه، كما يقول مثلاً: أما رأيتني كيف مزقت عرضه، ويقول المناظر في مناظرته: أما رأيتني كيف فضحته وكيف ذكرت مساويه حتى أخجلته وكيف استخففت به وكيف خدعته، ويقول التاجر أما رأيت كيف روجت عليه الزائف وكيف غششته وكيف غبنته بالسعر فهذا وأمثاله تكبر عندهم الصغائر، فإن الذنوب مهلكات وإذا دُفع العبد

<sup>(</sup>١) الكافي: ج٢، ص٢٨٧ تحت رقم: ١.

<sup>(</sup>٢) نفس المصدر: تحت رقم: ٢.

<sup>(</sup>٣) نفس المصدر: تحت رقم: ٦.

إليها وظفر الشيطان به. فينبغي أن يكون في حال مصيبة وتأسف، بسبب غلبة العدو عليه وبسبب بعده من الله تعالى، فالمريض الذي يفرح أن ينكسر إناؤه الذي فيه دواؤه حتى يتخلص من ألم شربه لا يرجى شفاؤه.

- ٤) ومنها أن يتهاون بستر الله عليه وحلمه عنه وإمهاله إياه ولا يدري أنه يمهل مقتاً ليزداد بالإمهال إثماً فيظن إن تمكنه من المعاصي عناية من الله تعالى به فيكون ذلك لأمنه من مكر الله وجهله بمكامن الغرور بالله، كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللّهُ بِمَا نَقُولُ نَ حَسْبُهُمْ جَهَنّمُ يَصْلَوْنَهَا أَن فَيْسَ الْمَصِيرُ ﴿(١).
- ه) ومنها ان يأتي الذنب ويظهره ولا يستره بأن يذكر أمام الناس أنه قارف الذنب أو أن يفعله أمام الناس، فإن ذلك منه جناية على ستر الله الذي أسدله عليه وتحريك لرغبة الشر عند الآخرين الذي شاهدوه أو سمعوا منه، فهما جنايتان انظمتا إلى جنايته، فإن أضاف إلى ذلك الترغيب للغير فيه وتميئة الأسباب لمقارفة نفس الذنب صارت جناية رابعة وعظم الأمر، وهذا لأن من صفات الله ونعمه أنه يظهر الجميل ويستر القبيح ولا يهتك الستر، فالإظهار كفران لهذه النعمة.

قال تعالى: ﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ ﴾ (٢).

<sup>(</sup>١) سورة المجادلة: الآية ٨.

<sup>(</sup>٢) سورة التوبة: الآية ٦٧.

وقد روى ثقة الإسلام الكليني (ره) بإسناده عن الإمام الرضا (عليه السلام) قال: (قال رسول الله (صلى الله عليه وآله) المستتر بالحسنة تعدل سبعين حسنة والمذيع بالسيئة مخذول والمستتر بها مغفور له))(١).

آ) ومنها أن يكون المذنب عالماً يقتدي به فإذا فعله بحيث يرى ذلك منه كبر ذنبه كلبس العالم الإبريسم والذهب وأحذه مال الشبهة من أموال السلاطين ودخوله عليهم وتودده إليهم ومساعدته إياهم بترك الإنكار عليهم وإطلاقه اللسان في الأعراض وقصده الاستخفاف، فهذه ذنوب يُتبَّع العالم عليها فيموت العالم ويبقى شره مستطيراً في العالم آماداً متطاولة، وطوبى لمن مات وماتت معه ذنوبه. قال تعالى: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمُ ﴿ آ وَالآثار ما يلحق الأعمال بعد انقضاء العمل والعامل. ونقل عن ابن عباس قوله: ويل للعالم من الأتباع يزل زلة فيرجع عنها ويحتملها الناس ويذهبون بها في الآفاق (٣).

وهذا يوضح إن أمر العلماء مخطر فعليهم وظيفتان: إحداهما ترك الذنب والأحرى إحفاؤه وكما تتضاعف أوزارهم على الذنوب، كذلك يتضاعف ثوابهم على

(١) الكافي: ج٢، ص٢٤ تحت رقم: ٢.

<sup>(</sup>٢) سورة يس: الآية ١٢.

<sup>(</sup>٣) المحجة البيضاء: ج٧، ص٦٢.

الحسنات إذا اتُبِعوا، كما لو ترك التحمل والميل إلى الدنيا مالت طباع مَنْ دونَه من الناس للتشبه به.

#### التوبة النصوح وكيفيتها

ذكرنا سابقاً إن التوبة عبارة عن ندم يورث عزماً وقصداً وذلك الندم يورثه العلم بكون المعاصي تحول بينه وبين ما يُحب، ولكل واحد من العلم والندم والعزم - التي تشكل الأركان الثلاثة للتوبة - كمال ولتمامها وكمالها علامة ولدوامها واستمرارها شروط فلابد من بيانها:

- ١) أما العلم فتمامه أن ينظر في سبب التوبة وسيأتي (١).
- ٢) وأما الندم فهو توجع القلب عند شعوره بفوات المحبوب وعلامته طول الحسرة والحزن وانسكاب الدموع وطول البكاء، فمن استشعر عقوبة نازلة بولده أو ببعض أعزته طالت عليه مصيبته وبكاؤه، وأي عزيز أعز عليه من نفسه؟ وأي عقوبة أشد من النار؟ وأي مخبر أصدق من الله ورسوله وأهل بيته (صلوات الله عليهم)، ولو حدثه إنسان واحد يسمى طبيباً أن ولده المريض لا يبرأ وأنه سيموت لطال في الحال حزنه، فليس ولده بأعز من نفسه ولا الطبيب بأعلم ولا أصدق من الله ورسوله والمعصومين ولا الموت بأشد من النار، فكلما كان ألم الندم أشد كان تكفير الذنوب به أرجى، فعلامة صحة الندم رقة القلب وغزارة الدمع.

<sup>(</sup>١) سيأتي الكلام عنه تحت عنوان (طريق العلاج لحل عقدة الإصرار)، فانتظر.

ومن علامته تمكن مرارة تلك الذنوب في قلبه بدلاً عن حلاوتها فيستبدل بالميل إلى الذنب كراهية له، وبالرغبة فيه نفرة منه. وقد ورد عن أمير المؤمنين (عليه السلام) لقائل قال بحضرته: (أَسْتَغْفِرُ الله). تُكِلَتْكَ أُمُّكَ، أَتَدْرِي مَا الْاسْتِغْفَارُ؟ الْاسْتِغْفَارُ دَرَجَةُ الْعِلِيِّينَ، وَهُوَ اسْمٌ وَاقِعٌ عَلَى سِتَّةِ مَعَانِ:

أَوَّلُهَا: النَّدَمُ عَلَى مَا مَضَى.

وَالثَّانِي: الْعَرْمُ عَلَى تَرْكِ الْعَوْدِ إِلَيْهِ أَبَداً.

وَالثَّالِثُ: أَنْ تُـوَّدِيَ إلى الْمَخْلُوقِينَ حُقُوقَهُمْ حَتَّى تَلْقَى اللهَ أَمْلَسَ لَيْسَ عَلَيْكَ بَعَةٌ.

وَالرَّابِعُ: أَنْ تَعْمِدَ إلى كُلِّ فَرِيضَةٍ عَلَيْكَ ضَيَّعْتَهَا فَتُؤَدِّيَ حَقَّهَا.

وَالْخَامِسُ: أَنْ تَعْمِدَ إِلَى اللَّحْمِ الَّذِي نَبَتَ عَلَى السُّحْتِ فَتُذِيبَهُ بِالْأَحْزَانِ، حَتَّى يَلْصِقَ الْجِلْدُ بِالْعَظْمِ، وَيَنْشَأَ بَيْنَهُمَا لَحْمُ جَدِيدٌ.

وَالسَّادِسُ: أَنْ تُذِيقَ الجِسْمَ أَلَمَ الطَّاعَةِ كَمَا أَذَقْتَهُ حَلاَوَةَ الْمَعْصِيَةِ، فَعِنْدَ ذلِكَ تَقُولُ: (أَسْتَغْفِرُ اللهُ)(١).

فإن قال قائل: إن الإنسان يقارف الذنوب، لأنه يشتهيها ويلتذ بها، وقد بيّنت الرواية السابقة هذا المعنى بقوله (عليه السلام): (كَمَا أَذَقْتَهُ حَلاَوَةَ الْمَعْصِيةِ)، فكيف يجد مرارتها بقولكم: (ومن علامته تمكن مرارة تلك الذنوب في قلبه بدلاً عن حلاوتها)؟

<sup>(</sup>١) نهج البلاغة: باب المختار من الحكم تحت رقم: ٤١٧.

قلنا: نقرب الجواب بمثال: فإن من تناول عسلاً كان فيه سم ولم يدركه بالتذوق واستلذه، ثم مرض وطال مرضه وألمه، فاذا قدم إليه عسل فيه سم مرة أحرى فتحده ينفر منه أشد ما تكون النفرة حتى لو كان في غاية الجوع، بل ربما ينفر من كل عسل حتى لو لم يكن فيه سم لشبهه به، فوجدان التائب مرارة الذنب كذلك يكون، وذلك لعلمه بأن كل ذنب فذوقه ذوق العسل وعمله عمل السم ولا تصح التوبة ولا تصدق إلا بمثل هذا الإيمان. فهذا شرط تمام الندم وينبغي أن يدوم إلى الموت، وينبغي أن يجد هذه المرارة في جميع الذنوب، وإن لم يكن قد ارتكبها من قبل، كما يجد متناول السم في العسل النفرة من الماء البارد كلما علم أن فيه مثل ذلك السم، فإنه لم يكن ضرر التائب من سرقته وزناه من حيث أنه سرقة وزنا، بل لما في السرقة والزنا من مخالفة أمر الله تعالى، وذلك جارٍ في كل ذنب.

٣) وأما القصد الذي ينبعث منه وهو إرادة تدارك الذنب الذي اقترفه، فشرط كماله هو أن يوجب ترك كل محظور ومحرم يقترفه، وامتثال كل فرض متوجه إليه في الحال، وأداء ما بذمته من حقوق مالية للغير، وقضاء ما فاته من العبادات، وأن ينوي دوام الطاعة ودوام ترك المعصية حتى الموت. وشروط صحتها على قسمين:

أ) أما العزم المرتبط بالمستقبل، فهو أن يعقد مع الله عقداً مؤكداً ويعاهده بعهد وثيق أن لا يعود إلى تلك الذنوب ولا إلى أمثالها؛ كالذي يعلم في مرضه أن الفاكهة تضره مثلاً، فيعزم عزماً مؤكداً أنه لا يتناول الفاكهة ما لم يزل مرضه.

ولا تتم التوبة الكاملة للتائب إلا بالعزلة والصمت وقلة الأكل والنوم وإحراز قوت حلال، فإن كان له مال موروث حلال أو كانت له حرفة يكتسب بها قدر الكفاية فليقتصر عليه، فإن رأس المعاصي أكل الحرام فكيف يكون تائباً مع الإصرار عليه. ولا يكتفي بالحلال وترك الشبهات من لا يقدر على ترك الشهوات في المأكولات والملبوسات، وقد قال بعضهم: من صدق في ترك شهوة وجاهد نفسه لله تعالى سبع مرات لم يبتل بها. وقال آخر: من تاب من ذنب واستقام سبع سنين لم يعد إليه أبداً (۱).

ومن مهمات التائب إذا لم يكن عالماً أن يتعلم ما يجب عليه في المستقبل وما يحرم عليه حتى يمكنه الاستقامة.

ب) فيما يتعلق بالماضي وهو أن يرد فكره إلى أول يوم بلغ فيه بالسن أو بالاحتلام، ويفتش عما مضى من عمره سنة سنة وشهراً شهراً ويوماً يوماً ونفساً نفساً، وينظر إلى الطاعات التي قصر في امتثالها، وإلى المعاصي ما الذي قارفه منها، فإن كان قد ترك صلاة واجبة عدا صلاة العيدين، أو صلاها بصورة غير صحيحة لجهله فيقضيها عن آخرها(٢)، فإن شك بعدد ما

<sup>(</sup>١) راجع المحجة البيضاء: ج٧، ص٦٦.

<sup>(</sup>٢) يرجع في احكام ذلك إلى رسائل العلماء باب قضاء الصلاة، فإن فيها تفصيل ما يجب قضاءه.

فاته منها حسب من مدة بلوغه، وترك القدر الذي يستيقن أنه أداه ويقضي الباقي<sup>(۱)</sup>، وأما الصوم فإن كان قد تركه في السفر أو المرض ولم يقضه أو أفطر عمداً أو نسي النية بالليل ولم يقضِ فيتعرف على مجموع ذلك بالتحري والاجتهاد ويشتغل بقضائه، وأما الزكاة والخمس فيحسب جميع ماله وعدد السنين، من أول وقت اجتمع فيه شرائط وجوبها عليه فيقضي ما أخل به من ذلك، أو أحل ببعض شروط أدائها المعتبرة، وأما الحج فإن كان قد استطاع فعليه في بعض السنين ولم يتفق له الخروج فعليه الخروج، فإن لم يستطع فعليه الاستنابة، فإن لم يكن له كسب ومال فعليه أن يدون ذلك في وصيته ليتسنى لورثته إفراغ ذمته إن أمكنهم ذلك.

قال الإمام الصادق (عليه السلام): ((من مات ولم يحج حجة الإسلام ولم يمنعه من ذلك حاجة بححف به أو مرض لا يطيق فيه الحج أو سلطان يمنعه فليمت يهودياً أو نصرانياً))(٢).

والعجز الطارئ بعد القدرة لا يسقط عنه الحج، فهذا طريق تفتيشه عن الطاعات وتداركها، وأما المعاصي فينبغي أن يفتش منذ أول بلوغه عن سمعه وبصره ولسانه

<sup>(</sup>۱) هذا هو الأحوط استحباباً، ويجوز الاقتصار على الأقل، فمثلا إذا علم بفوات فرائض عليه وشك في مقدار ها بين الأقل والأكثر جاز له الاقتصار على الأقل، وإن كان الأحوط استحباباً الإتيان بالأكثر. يقول السيد السيستاني (دام ظله): إذا شك في فوات فريضة أو فرائض لم يجب القضاء، وإذا علم بالفوات وتردد بين الأقل والأكثر جاز له الاقتصار على الأقل، وإن كان الأحوط استحباباً التكرار حتى يحصل العلم بالفراغ.

<sup>(</sup>٢) الفصول المهمة في أصول الأئمة، للحر العاملي: ج٢، ص١٦٠.

وبطنه ويده ورجله وفرجه وسائر جوارحه، ثم ينظر في جميع أيامه وساعاته وينشر عند نفسه ديوان معاصيه حتى يطلع على جميعها صغائرها وكبائرها، ثم ينظر فيها فما كان بينه وبين الله من حيث لا يتعلق العباد كنظر إلى غير محرم وقعود في مسجد مع الجنابة ومس مصحف بغير وضوء واعتقاد بدعة وشرب خمر وسماع ملاه وغير ذلك مما لا يتعلق بمظالم العباد، فالتوبة عنه بالندم والتحسر عليها ثم الاستغفار قدر المستطاع، بأن يحسب مقدارها من حيث الكبر ومن حيث المدة ويطلب لكل معصية منها حسنة تناسبها فيأتي من الحسنات مقدار تلك السيئات، أخذاً بقوله (صلى الله عليه وآله): ((اتق الله حيث كنت واتبع السيئة الحسنة تمحها))(۱).

فيكفّر عن سماع الملاهي بسماع القرآن أو بمجالس الذكر، ويكفّر عن القعود في المسجد جُنباً الاعتكاف فيه، ويكفّر عن مس المصحف محدثاً بإكرام المصحف وكثرة قراءة القرآن منه، وكثرة تقبيله، أو يطبع مصحفاً ويجعله وقفاً، ويكفر عن شرب الخمر بكل شراب حلال هو أطيب وأحب إليه، وعد جميع المعاصي غير ممكن، وإنما المقصود سلوك طريق المضادة، فإن المرض يعالج بضده فكل ظلمة ارتفعت إلى القلب بمعصية فلا يمحوها إلا نور يرتفع إليه بحسنة من جنسها لكي تضادها، والمتضادات هي المتناسبات، فلذلك ينبغي أن يمحوكل سيئة بحسنة من جنسها لكى تضادها لكى تضادها، والمتضادات هي المتناسبات، فلذلك ينبغي أن يمحوكل سيئة بحسنة من جنسها لكى تضادها، فإن البياض يُزال بالسواد لا بالحرارة والبرودة، وهذا الطريق لمحو

(١) بحار الأنوار: ج٦٨، ص٣٩٣.

<sup>(</sup>٢) سورة هود: الآية ١١٤.

السيئات الرجاء فيه أصدق والثقة به أكبر من أن يواظب على نوع واحد من العبادات وإن كان ذلك أيضاً مؤثراً في المحو، فهذا حكم بينه وبين الله تعالى.

ويدل على أن الشيء يكفر بضده إن حب الدنيا رأس كل خطيئة، وأثر اتباع الدنيا في القلب السرور بها، والحنين إليها فلا جرم كان كل أذى يصيب المسلم ينبو بسببه قلبه عن الدنيا يكون كفارة له، إذ القلب يتجافى بالهموم والغموم عن دار الهموم.

قال (صلى الله عليه وآله): ((من الذنوب ذنوب لا يكفرها إلا الهموم))(١).

وفي لفظ آخر إلا الهم بطلب المعيشة، وفي الحديث: ((إذا كثرت ذنوب العبد ولم تكن له أعمال تكفرها أدخل الله عليه الغموم فيكون كفارة لذنوبه))(٢).

ويقال: إن الهم الذي يدخل على القلب والعبد لا يعرفه هو ظلمة الذنوب، والهم على وشعور القلب بوقفة الحساب وهول المطلع.

فإذن الهموم أيضاً مكفرات حقوق الله، فهذا حكم ما بينه وبين الله.

وأما مظالم العباد ففيها معصية وجناية على حق الله، فإن الله نهى عن ظلم العباد أيضاً، فما يتعلق منه بحق الله تداركه بالندم والتحسر وترك مثله في المستقبل والإتيان بالحسنات التي هي أضدادها، فيقابل إيذاء الناس بالإحسان إليهم، ويقابل غصبه لأموالهم بالتصدق بملكه الحلال، ويكفر تناول أعراضهم بالغيبة والقدح فيهم بالثناء

<sup>(</sup>١) المحجة البيضاء: ج٧، ص٦٧، وهو حديث مروي عن العامة.

<sup>(</sup>٢) نفس المصدر.

عليهم والاستغفار لهم، وإظهار ما يعرف من خصال الخير من أقرانه وأمثاله، ويكفر قتل النفوس بإعتاق الرقاب، لأن ذلك إحياء (١).

وبما تقدم نتعرف على أن سلوك طريق المضادة وهو تكفير السيئات بما هو من جنسها من الحسنات سلوك مشهود له في الشرع حيث كفر عن القتل بإعتاق رقبة. ثم إذا فعل ذلك كله لم يكفه ولم يُنجه ما لم يخرج من مظالم العباد، ومظالم العباد إما في النفوس أو الأعمال أو الأعراض أو القلوب:

أما النفوس فإن جرى عليه قتل خطأ فتوبته بتسليم الدية وإيصالها إلى المستحق إما منه أو من عاقلته، وإن كان عمداً موجباً للقصاص فبالقصاص، فإن لم يُعرف فيحب عليه أن يعرف نفسه لوليّ الدم ويُحكِمَهُ في روحه، فإن شاء عفا عنه بأخذ الدية أو بدونها، وإن شاء قتله ولا يسقط تكليفه إلا بهذا، ولا يجوز إخفاء نفسه وليس هذا كالزني والسرقة أو قطع الطريق، لأنه لا يجب في التوبة منها أن يفضح نفسه ويهتك ستره، بل عليه أن يتستر بستر الله ويقيم حدود الله على نفسه بأنواع المجاهدة، فالعفو قريب من التائبين النادمين.

وإن كان المتناول مالاً تناوله بغصب وحيانة أو غبن في معاملة أو غش أو نقص في أجرة أجير، فكل ذلك يجب فيه أن يفتش عن صاحب الحق ويرده إليه، حتى التبعات المالية التي كانت عليه في أيام صباه، كما لو كان قد سرق وهو طفل، فيجب عليه رد المبلغ المسروق إلى صاحبه فإن لم يفعل كان ظالماً مطالباً به يوم

\_

<sup>(</sup>١) ينبغي التنبيه هنا أن ما نذكره هنا هو من شرائط كمال التوبة والكثير منها غير واجب فيرجع المكلف في ذلك إلى الفقيه ليحدد له وظيفته.

القيامة، إذ يستوي في الحقوق المالية الصبي والبالغ، وليحاسب نفسه على الحبات والذرات من أول أيام حياته إلى يوم توبته قبل أن يحاسب يوم القيامة، فمن لم يحاسب نفسه في الدنيا طال وقوفه للحساب في الآخرة.

فإن استطاع حصر جميع ما عليه من حقوق فليكتبها وليكتب أسامي أصحاب المظالم واحداً واحداً وليطف أقطار العالم وليطلبهم ليستحل منهم أو يؤد حقوقهم اليهم أو لورثتهم.

فإن شقت عليه ولم يستطع ذلك فعليه منها ما يستطيع فإن الميسور لا يسقط بالمعسور فليطلب بعضهم ممن يقدر أن يصل إليهم أو لورثتهم والباقي منهم يرجع في أمرهم إلى الحاكم الشرعي ليأذن له في صرف حقوقهم على الفقراء، وهو ما يسمى في عرف المتشرعة (بردود المظالم).

فإن اختلط ماله الحلال بالحرام ولم يعرف صاحبه ليرده إليه خمس جميع ماله، لقول أمير المؤمنين (عليه السلام): ((أنه إذا تصدق بخمسه حل له الباقي))(١).

وأما الجناية على القلوب بمشافهة الناس بما يسوؤهم أو يعيبهم بالغيبة أو تعرض له بلسانه بسبٍ ونحوه أو أذى قلبه بفعل من أفعاله كالاستهزاء والإهانة وغيرها فلابد

<sup>(</sup>١) الكافي: ج٥، ص ١٢٥ باب مكاسب الحرام.

له من الاستغفار والندم، وينبغي له الاستحلال من ذلك الشخص واسترضاءه ((فإن من كسر مؤمناً فعليه جبره)). (١)

<sup>(</sup>١) الكافي: ج ٢، ص ٤٤ و ٤٥، بحار الأنوار ج٦٦ ص١٦٦.

### طبقات التائبين

قال أهل القلوب وأقطاب رحى علم الأخلاق إن للتائبين أربع مراتب وطبقات: الطبقة الأولى: أن يتوب العاصي ويستقيم على التوبة إلى آخر عمره فيتدارك ما فرط من أمره ولا يُحدِثُ نفسه بالعود إلى ذنوبه إلا الزلات التي لا ينفك البشر عنها في العادات مهما لم يكن في رتبة العصمة فهذه هي الاستقامة على التوبة وصاحبها هو السابق بالخيرات واسم هذه التوبة (التوبة النصوح) واسم هذه النفس الساكنة (النفس المطمئنة) التي ترجع إلى ربحا راضية مرضية وأهل هذه المرتبة على رتب من حيث النزوع إلى الشهوات، فمن تائب سكنت شهواته تحت قهر المعرفة ففترت ولم يشغله منازعة شهوته عن السير في طريق القرب الإلهي، وإلى ما لا ينفك عن منازعة النفس ولكنه نجح في جهادها والتغلب على نوازع الشهوة فيها، ثم تختلف درجات النفس ولكنه نجح في جهادها والتغلب على نوازع الشهوة فيها، ثم تختلف درجات النفس ولكنه نجح في جهادها والتغلب على نوازع الشهوة فيها، ثم تختلف درجات النفس ولكنه نجح في هذه المرتبة بحسب طول عمر التائب وكثرة ابتلائه بما يثير شهوته ودرجة الإثارة وغير ذلك مما يطول ذكره.

فقد يقصر عمر التائب ويُغبط على ذلك لسلامته من الذنوب، وقد يطول عمره فيطول جهاده لنفسه وصبره، وحال هذا أعلى وأفضل من السابق ((إذ الأجر على قدر المشقّة))(1)، ((وأفضل الأعمال أحمزها))(7).

<sup>(</sup>١) عيون الحكم والمواعظ: ص٢١٨. والنصّ هو: «ثواب العمل على قدر المشقّة فيه».

<sup>(</sup>٢) النهاية في غريب الحديث: ج١، ٤٠٠ص، «حمز»، وأحمزها، أي أقواها وأشدها.

الطبقة الثانية: تائب سلك طريق الاستقامة في أُمهات الطاعات وكبائر الفواحش كلها، إلا إنه ليس ينفك عن ذنوب تعتريه لا عن عمد وقصد، ولكنه يبتلي بها من غير أن يكون عازماً على الإقدام على المعاصى. ولكنه كلما أقدم عليها لام نفسه وندم وتأسف وجدد عزمه على أن يحترز من أسبابها التي تعرضه لها، وهذه النفس جديرة بأن تكون هي النفس اللوامة، إذ تلوم صاحبها على ما يجترئه من ذنوب، وهذه أيضاً مرتبة عالية وإن كانت نازلة عن الطبقة الأولى وأغلب التائبين هم من أهل هذه الطبقة، لأن الشر معجون بطينة الآدمي وقلما ينفك عنه وإنما غاية سعيه أن يتغلب خيره على ما فيه من شر، وهؤلاء لهم الوعد الحسن من الله تعالى، إذ قال عز من قائل: ﴿ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَة ﴾(١)، فكل إلمام بصغيرة فهو جدير بأن يكون من اللمم المعفو عنه، وقد قبال تعبالي: ﴿ وَالَّـذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَـةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَـهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوكِمِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿ (٢)، فأثنى عليهم من ظلمهم أنفسهم وتندمهم ولومهم أنفسهم عليه.

والآيات السابقة أدلة على إن هذا القدر من الذنوب لا ينقض التوبة ولا يلحق صاحبها بدرجة المصرّين، فلا ينبغي أن ييأس الناس إذا تابوا ثم أصابهم اللمم.

الطبقة الثالثة: أن يتوب ويستمر على الاستقامة مدة ثم تغلبه شهوته في بعض الذنوب فيقدم عليها عن صدق وقصد شهوة لعجزه عن قهر الشهوة، إلا إنه رغم

(١) سورة النجم: الآية ٣٢.

<sup>(</sup>٢) سورة أل عمران: الآية ١٣٥.

ذلك مواظب على الطاعات وتارك جملة من الذنوب مع القدرة والشهوة، وإنما قهرته هذه الشهوة الواحدة أو الشهوتان وهو يود لو أقدره الله على قمعها وكفاه شرها هذه أمنيته في حال قضاء الشهوة وعند الفراغ يندم ويقول: ليتني لم أفعله وسأتوب عنه وأجاهد نفسي في قهرها، لكنه تسول له نفسه ويسوف توبته مرة بعد أخرى ويوماً بعد يوم، فهذه النفس هي التي تسمى النفس المسوّلة، وصاحبها من الذين قال الله تعالى عنهم: ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوكِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرُ الله سَيِّا عَسَى الله أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَ إِنَّ الله عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿(١)، فبما إنه مواظب على الطاعات وكاره لما يتعاطاه فعسى الله أن يتوب الله عليه وعاقبته مخطرة من حيث تسويفه وتأخيره، فربما يختطف ويموت قبل التوبة، فإن تداركه الله بفضله وجبر كسره وامتن عليه بالتوبة التحق بالسابقين وإن غلبته شقوته وقهرته شهوته فيخشى أن يحق عليه القول وينال ما استحقه جزاء أعماله.

#### توضيح ذلك:

من الشواهد التي لا ينكرها أحد إن الإنسان لا يكون فقيها ً - مثلاً - إلا بعد طول تفقيه لنفسه وتعليم وترك الكسل والمواظبة على درء الجهل، وحصول البرء من المرض ودوام الصحة لا يحصلان إلا بأخذ الدواء والابتعاد عن مسببات المرض، كذلك حال الآخرة فإن سعادات الآخرة ودركاتها يرتبطان بالحسنات التي يفعلها

<sup>(</sup>١) سورة التوبة: الآية ١٠٢.

الإنسان والسيئات التي يقترفها، فلا يصلح لملك الآخرة ونعيمها والقرب من رب العالمين إلا قلب سليم صار طاهراً بطول التزكية والتطهير، لذلك قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا \* فَأَهْمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا \* قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا \* وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾ (١).

فمهما وقع العبد في ذنب فصار الذنب نقداً والتوبة نسيئة كان هذا من علامات الخذلان.

فإن الخوف من الخاتمة قبل التوبة وكل نَفَسٍ فهو حاتمة النَفَس الذي قبله لمكان غياب وقت المنية وعدم معرفتنا به فبأي لحظة قد يفارق الإنسان هذه الدنيا وهو على غير توبة وحينئذ تدوم الحسرات حين لا ينفع التحسر.

الطبقة الرابعة: أن يتوب ويجري مدة على الاستقامة ثم يعود إلى مقارفة الذنب أو الذنوب من غير أن يحدث نفسه بالتوبة ومن غير أن يتأسف على فعله، بل ينهمك الهماك الغافل في اتباع الشهوات، فهذا من جملة المصرين، وهذه النفس هي النفس الأمارة بالسوء الفرّارة من الخير، ويخاف على هذا سوء الخاتمة، وأمره في مشيئة الله فإن حتم له بالسوء شقي شقاوة لا آخر لها وإن حتم له بالحسنى حتى مات على التوحيد فينتظر له الخلاص من النار ولو بعد حين، وقد تناله شفاعة الشافعين (صلوات الله عليهم اجمعين) إذ لا يستحيل أن يدخل الإنسان بيت حرباً فيجد كنزاً.

<sup>(</sup>١) سورة الشمس: الأيات ٧-١٠.

وكما إن من ترك السعي وترك نفسه وعياله جياعاً يزعم إنه ينتظر فضل الله عليه بأن يرزقه كنزاً وهو جالس في داره، يراه ذوو البصائر أحمقاً ومغروراً وإن كان ما ينتظره ليس مستحيلاً على الله تعالى، فكذلك من ينتظر المغفرة من فضل الله وهو مقصر عن الطاعة مصر على الذنوب غير سالك سبيل المغفرة معدود عند أرباب القلوب من المعتوهين.

أما علم هذا المسكين إن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة وإنما ينال ذلك بالكسب فهكذا قدره رب العزة وأجرى بها سنته ولا تبديل لسنة الله، ولا يعلم المغرور: أن رب الآخرة ورب الدنيا واحد، وأن سنته لا تبديل لها فيهما جميعاً، وأنه قد أخبر بذلك إذ قال: ﴿وَأَن لَيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿(١)، فتراه في الآخرة أوقف النتيجة على السبب والأجر على العمل وأجاز في الدنيا العطاء من غير استحقاق!

<sup>(</sup>١) سورة النجم: الأية ٣٩.

# ما ينبغي أن يبادر إليه التائب

تقدم سابقاً إن على التائب الندم والاشتغال بالتكفير عن ذنوبه بحسنات تضاد الذنب، فإن لم يستطع العزم على الترك لغلبة الشهوة فقد عجز عن أحد الطريقين في تكفير الذنوب، فلا ينبغي أن يترك الطريق الثاني، وهو أن يدرأ بالحسنة السيئة لتمحوها فيكون ممن خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً عملاً بقوله تعالى: ﴿إِنَّ المُسْنَاتِ يُذْهِبُنَ السَّيِّعَاتِ ﴾ (١)، وقوله تعالى: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِالْحُسَنَةِ السَّيِّعَةَ أُولَٰئِكَ هَمُ مُ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ (١)، والحسنات المكفرة للسيئات إما بالقلب أو باللسان أو بالجوارح، ولتكن الحسنة في محل السيئة وفيما يتعلق بأسبابها، فأما القلب فليكفره بالتضرع إلى الله تعالى في سؤال المغفرة والعفو ويتذلل تذلل العبد الآبق ويكون ذله بحيث يظهر لسائر العباد وأمام الناس، فما للعبد الآبق وجه للتكبر على سائر العباد، وبأن يضمر بقلبه الخيرات للمسلمين والعزم على الطاعات.

وأما باللسان فبالاعتراف بالظلم والاستغفار، فيقول ربي ظلمت نفسي سوءاً فاغفر لي ذنوبي، وكذلك يكثر من ضروب الاستغفار. قال تعالى: ﴿وَمَاكَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ (٣).

وأما بالجوارح فبالطاعات والصدقات، وفي الآثار ما يدل على أن الذنب إذا تبع بأعمال صالحة كان العفو عنه مرجواً، قال تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا

<sup>(</sup>١) سورة هود: الآية ١١٤.

<sup>(</sup>٢) سورة الرعد: الآية ٢٢.

<sup>(</sup>٣) سورة الأنفال: الآية ٣٣.

صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّعَاتِمِمْ حَسَنَاتٍ أَوَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ((). ومن جملة الطاعات والقربات التي تكون سبباً في تبديل السيئات بالحسنات الصلاة. قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّعَاتِمِمْ وَلَنَحْزِينَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (()).

وإليك جملة من روايات أهل بيت القداسة والطهارة التي تبين جبران الذنوب ببعض الأعمال، ففي الروايات تأكيد صريح حول التوبة وتلافي الذنوب السابقة ولا يكفي الندم على ما فعل بل يجبر الآثار السيئة للذنوب بالأعمال الصالحة. وأحياناً هذا الجبران يظهر بوجوه خاصة حتى يشكل عاملاً تربوياً وتكاملياً للإنسان وفي ظله تجبر جميع الآثار السيئة للذنب:

1) قال الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم): ((اتق الله حيث كنت، وخالق الناس بخلق حسن، وإذا عملت سيئة فاعمل حسنةً تمحوها))<sup>(٣)</sup>.

٢) وقال الإمام الصادق (عليه السلام): ((من عمل سيئة في السر فليعمل حسنةً في السر، ومن عمل سيئة في العلانية فليعمل حسنةً في العلانية)<sup>(٤)</sup>.

<sup>(</sup>١) سورة الفرقان: الآية ٧٠.

<sup>(</sup>٢) سورة العنكبوت: الآية ٧.

<sup>(</sup>٣) بحار الأنوار: ج ٧١، ص ٢٤٢ ـ الوسائل ج ١١ ص ٣٨٤.

<sup>(</sup>٤) وسائل الشيعة: ج ١١، ص ٣٨٣.

٣) وقال الإمام الباقر (عليه السلام): ((التائب إذا لم يستبن أثر التوبة فليس بتائب: يرضي الخصماء ويعيد الصلوات ويتواضع بين الخلق، يتقي نفسه عن الشهوات....))(١).

- ٤) وقال أمير المؤمنين (عليه السلام): ((ثمرة التوّبة استدراك فوارط النفس)) (٢).
- ه) وقال الإمام الكاظم (عليه السلام): ((من كفّارات الذنوب العظام إغاثة الملهوف والتنفيس عن المكروب))<sup>(٣)</sup>.
- ٦) سأل شخص من رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ما كفارة الغيبة؟
  فقال الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم): ((أن تستغفر لمن اغتبته))<sup>(3)</sup>.

٧) وقال الإمام الباقر (عليه السلام): (ثلاث كفّارات: إفشاء السلام وإطعام الطعام والتهجد بالليل والناس نيام)<sup>(٥)</sup>.

٨) وقال الإمام الباقر (عليه السلام): (أربع من كن فيه وكان من قرنه إلى قدمه ذنوباً بدلها الله حسنات: الصدق والحياء وحسن الخلق والشكر)<sup>(١)</sup>.

٩) وقال الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم): ((إن من الذنوب ذنوباً لا تكفرها صلاة ولا صدقة، قيل: يا رسول الله فما يكفّرها؟ قال: الهموم في طلب المعيشة))(١).

<sup>(</sup>١) بحار الأنوار: ج ٦، ص ٣٥ ـ ميزان الحكمة ج ١ ص ٥٤٨.

<sup>(</sup>٢) مستدرك الوسائل: ج ٢، ص ٣٤٨.

<sup>(</sup>٣) شرح النهج، لابن أبى الحديد: ج ١٨، ص ١٣٥.

<sup>(</sup>٤) وسائل الشيعة: ج ١٥، ص ٥٨٣.

<sup>(</sup>٥) بحار الأنوار: ج ٧٧، ص ٥٢.

<sup>(</sup>٦) بحار الأنوار: ج ٧١، ص ٣٣٢.

10) حاء شخص إلى الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) وقال: ذنوبي كثيرة وأعمالي الصالحة قليلة، فقال الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) له: (أكثر السجود فإنّه يحط الذنوب كما تحط الريح ورق الشجر)(٢).

(١) بحار الأنوار: ج ٧٣، ص ١٥٧.

<sup>(</sup>٢) بحار الأنوار: ج ٨٥، ص ١٦٢ ـ ميزان الحكمة ج ٣ ص ٤٧٧.

## التطهير المنوي

ما دام الإنسان في حجاب نفسه ومشغولاً بنفسه ولم يخرق الحجب . حتى الحجب النورانية . ففطرته محجوبة، والخروج من هذا المنزل . يحتاج بالإضافة الى المجاهدات . إلى هداية الحق تعالى.

ورد في المناجاة الشعبانية المباركة: (إلهي هَب لي كمال الانقطاع إليك، وأنر أبصار قلوبنا بضياء نظرها إليك حتى تخرق أبصار القلوب حُجُب النور، فتصل إلى معدن العظمة، وتصير أرواحنا مُعلقة بعزّ قدسك، إلهي واجعلني ممن ناديته فأجابك ولاحظته فصعق لجلالك، فناجيته سِرّاً)(١).

والمراد من (كمال الانقطاع) هو الخروج من منزل النفس والانقطاع عن الغير، والالتحاق به تعالى، وهو هبة إلهية إلى الأولياء الخلّص.

وما لم تنور أبصار القلوب بضياء نظرته تعالى لا تخرق حجب النور وما دامت هذه الحجب باقية فلا سبيل إلى معدن العظمة، ولا تحصل الأرواح على التعلق بعز القدس ولا تحصل مرتبة التدلي (ثم دنا فتدلى).

فما لم يتحقق لك وصال المحبوب فيجب أن تفني نفسك في الطريق إليه. لذا يلزم تهذيب النفس وتطهير القلب عن غيره تعالى فضلاً عن الأخلاق الذميمة.

<sup>(</sup>۱) مستدرك سفينة البحار: ج١٠ ص٣٤.

فقد بعث الله تعالى الأنبياء ليعطوا البشر الرشد المعنوي ويخلصوهم من الحجب، وقد أقسم الشيطان وبواسطة أذنابه أن لا يدع أهدافهم تتحقق (فبعزتك لأغوينهم أجمعين). فالبشر نيام ومبتلون بالحجب (الناس نيام إذا ماتوا انتبهوا)(۱).

ونحن إذا تدبرنا القرآن تتدفق ينابيع المعارف إلى القلب، فالقرآن هو المنبع للفيض الإلهي ورغم أن صرف قراءته باعتباره رسالة المحبوب إلى السامع المحجوب له آثار محببة لكن التدبر فيه يهدي الإنسان إلى المقامات الأعلى والأسمى.

(أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها) (٢). وما لم تفتح هذه الأقفال والأغلال وتتحطم لا يحصل من التدبر ما هو نتيجته.

ومن هنا نجد أن الآيات المباركة تحث الإنسان نحو التزكية والتطهير من قذارة الطغيان بالتوبة والرجوع إلى الله تعالى.

والخشية مترتبة عليه والمراد بها الخشية الملازمة للإيمان الداعية إلى الطاعة والرادعة عن المعصية. فعلينا التطهر بالطاعة وتجنب المعصية.

والفلاح والنجاح يرتبطان بتزكية النفس وتطهيرها وسموها في ظل الإيمان والعمل الصالح، كما إن شقاء الإنسان يكون بسبب التلوث بالذنوب والانحراف عن مسير التقوى.

<sup>(</sup>١) بحار الأنوار: ج٥٠، ص ١٣٤.

<sup>(</sup>٢) سورة محمد الأية ٢٤.

ورد في الأثر<sup>(۱)</sup> أن زوج العزيز (زليخا) قالت ليوسف لما أصبح حاكم مصر: (إن الحرص والشهوة تصير الملوك عبيداً وإن الصبر والتقوى يصير العبيد ملوكاً فقال يوسف (عليه السلام): قال تعالى: (إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين)<sup>(۱)</sup>.

<sup>(</sup>١) تفسير الأمثل: ج١٥، ص٥٥٥-٣٥٦.

<sup>(</sup>٢) سورة يوسف: الآية ٩٠.

## طريق العلاج لحل عقدة الإصرار

لا يخفى أنّ أكثر النّاس لا يخلو عن مقارفة الذّنوب، ثمّ هم ينقسمون إلى مصرين وتائبين. وغرضنا أن نبيّن العلاج في حلّ عقدة الإصرار ونذكر الدّواء فيه، فقد ذكر علماء الأخلاق أنّ شفاء التّوبة لا يحصل إلّا بالدّواء ولا يُعلم ما هو الدّواء من لا يعلم الدّاء، إذ لا معنى للدّواء إلّا مكافحة أسباب الدّاء فكلّ داء حصل من سبب فدواؤه حلّ ذلك السّبب ورفعه وإبطاله، ولا يبطل الشيء إلّا بضدّه ولا سبب للإصرار إلّا الغفلة والشهوة ولا يضاد الغفلة إلّا العلم ولا يضاد الشهوة إلّا الصبر على قطع الأسباب الحرّكة للشهوة، والغفلة رأس الخطايا، قال الله تعالى: ﴿أُولئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ... لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (١). فلا دواء إذن للتّوبة إلّا معجون يعجن من حلاوة العلم ومرارة الصبر، وكما يجمع في السّكنجبين بين حلاوة السكّر وحموضة الخلّ، فهكذا ينبغي أن يفهم علاج القلب عمّا به من مرض السكّر وحموضة الخلّ، فهكذا ينبغي أن يفهم علاج القلب عمّا به من مرض الإصرار، فإذن لهذا الدّواء أصلان أحدهما العلم والآخر الصبر فلا بدّ من بياغما:

<sup>(</sup>١) سورة النحل: الآية ١٠٩.

#### الأول: العلم وهو علاج الغفلة:

فإن قلت: أينفع كل علم لحل الإصرار أم لا بد من علم مخصوص؟

نقول: إنّ العلوم بجملتها أدوية لأمراض القلوب لكن لكلّ مرض علم يخصّه كما أنّ علم الطبّ نافع في علاج الأمراض بالجملة ولكن يخصّ كلّ مرض علم مخصوص فكذلك دواء الإصرار، فلنذكر خصوص ذلك العلم بتشبيهه بمرض الأبدان ليكون أقرب إلى الفهم، فنقول: يحتاج المريض إلى التصديق بأمور أربعة:

الأوّل: أن يصدّق إجمالاً بأنّ للمرض والصحّة أسبابا يتوصّل إليها بالاختيار على ما رتبه مسبّب الأسباب، وهذا هو الإيمان بأصل الطّب فإنّ من لا يؤمن به لا يشتغل بالعلاج ويحقّ عليه الهلاك وهذا وزانه وتطبيقه على ما نحن فيه الإيمان بأصل الشّرع، وهو أنّ يؤمن بالله واليوم الآخر، وأن للسعادة في الآخرة سبباً هو الطاعة وللشقاوة سبباً وهو المعصية.

الثاني: أنّه لا بدّ وأن يعتقد المريض في طبيب معيّن أنّه عالم بالطبّ حاذق فيه صادق فيما يعبّر عنه، لا يُلبس الأمر على المرضى ولا يكذب، فإنّ إيمانه بأصل الطبّ لا ينفعه بمجرّده دون هذا الإيمان وتطبيقه في مرض الأرواح والقلوب هو العلم بصدق الرّسول (صلّى الله عليه وآله وسلّم) والأئمة الأطهار (عليهم السلام) من بعده، والإيمان بأنّ كلّ ما يقولونه حقّ وصدق لا كذب فيه ولا خلف.

الثالث: أنّه لا بدّ وأن يصغي إلى الطبيب فيما يحذّره من تناوله والأسباب المضرّة على الجملة حتى يغلب عليه الخوف في ترك الاحتماء فتكون شدّة الخوف باعثة له

على الاحتماء، ووزانه وتطبيقه من الدّين الإصغاء إلى الآيات والأخبار المشتملة على الترغيب في التقوى والتحذير من ارتكاب الذّنوب واتباع الهوى والتصديق بجميع ما يلقى إلى سمعه من ذلك من غير شكّ واسترابة حتى ينبعث به الخوف المقوي على الصبر الّذي هو الرّكن الآخر في العلاج.

الرابع: أن يصغي إلى الطبيب فيما يخصّ مرضه وفيما ألزمه بالاحتماء عنه ليعرّفه أوّلا تفصيل ما يضرّه من أفعاله وأحواله ومأكوله ومشروبه، فليس على كلّ مريض الاحتماء عن كلّ شيء ولا ينفعه كلّ دواء، بل لكلّ علَّة خاصّة علم خاصّ وعلاج خاص، ووزانه وتطبيقه من الدّين أنّ كلّ عبد ليس يبتلي بكلّ شهوة وارتكاب كلّ ذنب، بل لكل مؤمن ذنب مخصوص أو ذنوب مخصوصة فتكون حاجته إلى العلم بأُخَّا ذنوب، ثمَّ إلى العلم بآفاتها وقدر ضررها في الدّين، ثمَّ إلى العلم بكيفيّة التوصّل إلى الصبر عنها، ثمّ إلى العلم بكيفيّة تكفير ما سبق منها. فهذه علوم يختصّ بما أطبّاء الدّين وهم العلماء الّذين هم ورثة الأنبياء، فالعاصى إن علم عصيانه فعليه طلب العلاج من الطبيب وهو العالم وإن كان لا يدري أنّ ما يرتكبه ذنب، فعلى العالم أن يعرّفه ذلك بأن يتكفّل كل عالم بإقليم أو بلدة أو محلّة أو مسجد أو مشهد، فيعلُّم أهله دينهم ويميِّز ما يضرّهم عمّا ينفعهم وما يُشقيهم عمّا يسعدهم ولا ينبغي أن يصبر إلى أن يُسأل عنه، بل ينبغي أن يتصدّى لدعوة الناس إلى نفسه فإخّم ورثة الأنبياء (عليهم السلام) والأنبياء ما تركوا الناس على جهلهم، بل كانوا ينادوغم في جمامعهم ويدورون على أبواب دورهم في الابتداء ويطلبون واحداً واحداً فيرشدوغم، فإنّ مرضى القلوب لا يعرفون مرضهم كما أنّ الّذي ظهر على وجهه برص ولا مرآة معه لا يعرف مرضه ما لم يعرفه غيره، فإنّ الخلق لا يولدون إلا جهّالاً، فلا بدّ من تبليغ الدّعوة إليهم في الأصل والفرع فالدّنيا دار بلوى، إذ ليس في بطن الأرض إلّا ميّت ولا على ظهرها إلّا سقيم ومرض القلوب أعظم من مرض الأبدان، والعلماء أطبّاء والسّلاطين مسؤولو هذا المشفى. فكلّ مريض لم يقبل العلاج بمداواة العالم يسلّم إلى السلطان ليكفّ شرّه كما يسلّم الطبيب المريض الذي لا يحتمي أو الّذي غلب عليه الجنون إلى القيّم والمسؤول ليقيّده بالسلاسل والأغلال ويكفّ شرّه عن نفسه وعن سائر الناس، وإغّا صار مرض القلوب أكثر من مرض الأبدان لسبين:

إحداها: أنّ المريض به لا يدري أنّه مريض.

والثانية: أنّ عاقبته غير مشاهدة في هذا العالم بخلاف مرض البدن، فإنّ عاقبته موت مشاهد تنفر الطباع منه وما بعد الموت غير مشاهد وعاقبة الذّنوب موت القلب وهو غير مشاهد في هذا العالم، فقلّت النّفرة عن الذّنوب وإن علم بحا مرتكبها، فلذلك تراه يتّكل على فضل الله في مرض القلب ويجتهد في علاج مرض البدن من غير اتّكال.

## الخوف والرجاء آلة المبلغ

كما إن فقد طبيب الأبدان يقتضى الهلاك، كذلك فقد أطباء القلوب والأرواح، فإنّ الأطبّاء هم العلماء، ولهم في علاج مرضاهم فنون، فلا تجدهم يرغّبون العوام ويستميلون قلوبهم حتى يؤدي بهم ذلك إلى الأرجاء وطول الأمل وترك العمل وذكر دلائل الرّحمة، لأنّ ذلك ألذٌ في الأسماع وأخفّ على الطباع، فينصرف الخلق عن مجالس الوعظ. وقد استفادوا مزيد جرأة على المعاصي ومزيد ثقة بفضل الله، كما لا تجدهم يؤيسون الناس عن رحمة الله تعالى، فالرّجاء والخوف دواءان ولكن لشخصين متضادّي العلّه، أمّا الّذي غلب عليه الخوف حتّى هجر الدّنيا بالكلّية وكلّف نفسه ما لا يطيق وضيّق العيش على نفسه بالكلّيّة فتكسر سورة إسرافه في الخوف بذكر أسباب الرّجاء ليعود إلى الاعتدال، وكذا المصرّ على الذّنوب المشتهى للتّوبة الممتنع عنها بحكم القنوط واليأس استعظاما لذنوبه التي سبقت يعالج أيضاً بأسباب الرّجاء حتّى يطمع في قبول التّوبة فيتوب. فأمّا معالجة المغرور المسترسل في المعاصي بذكر أسباب الرّجاء فلا يجوز فإنه حينئذ يغريه بالمعصية ويحبّب إليه الذنوب.

فما هو الطّريق الّذي ينبغي أن يسلكه الواعظ في وعظه مع الخلق؟

والجواب: أنّ ذلك يطول ولا يمكن استقصاؤه نعم نشير إلى الأنواع النافعة في حلّ عقدة الإصرار، وحمل الناس على ترك الذّنوب وهي أربعة أنواع:

النوع الأوّل: أن يذكر ما في القرآن من الآيات المخوّفة للمذنبين والعاصين، وكذلك ما ورد من الأحبار الدالة على المطلوب، والآثار في ذمّ المعاصي ومدح

التائبين لا تحصى، فينبغي أن يستكثر الواعظ منها إن كان هو وارث رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم) فإنّه ما خلّف ديناراً ولا درهما إنّما خلّف العلم والحكمة وورثه كلّ عالم بقدر ما أصاب من العلم.

والنوع الثاني: حكايات أولياء الله تعالى والعلماء وما جرى عليهم من المصائب بسبب ذنوبهم فذلك شديد الوقع ظاهر النفع في قلوب الخلق، وأمثال هذه الحكايات لا تنحصر ولم يرد بها القرآن والأخبار ورود الأسمار، بل الغرض بها الاعتبار والاستبصار ليعلم أنّ الأولياء لم يتجاوز عنهم في الذّنوب الصغار فكيف يتجاوز عن غيرهم في الذّنوب الكبار، نعم كانت سعادتهم في أن عوجلوا بالعقوبة ولم يؤخروا إلى الآخرة، والأشقياء يمهلون ليزدادوا إثماً ولأنّ عذاب الآخرة أشدّ وأكبر، فهذا أيضاً ممّا ينبغي أن يكثر جنسه على أسماع المصرّين، فإنّه نافع في تحريك دواعي التوبة.

النوع الثالث: أن يقرّر عندهم أنّ تعجيل العقوبة في الدّنيا متوقّع على الدّنب، وأنّ كلّ ما يصيب العبد من المصائب فهو بسبب جناياته فربّ عبد يتساهل في أمر الآخرة ويخاف من عقوبة الله في الدّنيا أكثر لفرط جهله فينبغي أن يخوّف به، فإنّ الذّنوب كلّها يتعجّل في الدّنيا شؤمها في غالب الأمر حتى قد يضيق على العبد رزقه

بسبب ذنوبه وقد تسقط منزلته عن القلوب ويستولي عليه أعداؤه وفي الخبر: ((إنّ الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه))(١).

وورد أيضاً: ((إنّ العبد ليذنب الذنب فيزوي عنه الرزق)) (١٠).

وقال بعضهم: ليست اللّعنة سواداً في الوجه ونقصاناً في المال إنّما اللّعنة أن لا تخرج من ذنب إلّا وقعت في مثله أو أشدّ منه، وهو كما (قالوا) لأنّ اللّعنة هي الطرد والإبعاد، فإذا لم يوفّق للخير ويُسّر له الشرّ فقد أبعد، والحرمان عن رزق التوفيق أعظم حرمان، وكلّ ذنب فإنّه يدعو إلى ذنب آخر ويتضاعف فيحرم العبد به عن رزقه النافع في مجالسة العلماء المنكرين للذّنوب وعن مجالسة الصالحين بل يمقته الصالحون، وفي الخبر: ((ما أنكرتم من زمانكم فبما غيّرتم من أعمالكم))(٢).

وفي الكافي عن الصادق (عليه السلام) قال: ((قال أمير المؤمنين (عليه السلام) في قوله تعالى: ﴿وَما أَصابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِما كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ويَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ ﴾: ليس من التواء عرق ولا نكبة حجر ولا عثرة قدم ولا خدشة عود إلّا بذنب ولما يعفو الله أكثر))(٤).

<sup>(</sup>١) مستدرك الوسائل، للميرزا النوري: ج٥، ص١٧٨.

<sup>(</sup>۲) الكافي: ج۲، ص۲۷۰.

 <sup>(</sup>٣) مرآة العقول في شرح أخبار آل الرسول: ج٥، ص: ١.

<sup>(</sup>٤) الكافي: ج٢، ص٤٤٥ تحت رقم: ٦، والآية من سورة الشورى: ٣٠.

وعنه (عليه السلام) قال: ((قال أمير المؤمنين: ترك الخطيئة أيسر من طلب التوبة، وكم من شهوة ساعة أورثت حزناً طويلاً والموت فضح الدّنيا ولم يترك لذي لبّ فرحاً))(١).

النوع الرّابع: ذكر ما ورد من العقوبات على آحاد الذّنوب كالخمر والزّناء والسرقة والقتل والغيبة والكبر والحسد وذلك ممّا لا يمكن حصره وذكره مع غير أهله وضع للدّواء في غير موضعه، بل ينبغي أن يكون العالم كالطبيب الحاذق يستدلّ أوّلاً بالنبض والهيئة واللون ووجوه الحركات على العلل الباطنة ويشتغل بعلاجها فليستدلّ بقرائن الأحوال على خفايا الصفات وليتعرّض لما وقف عليه اقتداءاً برسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم)، حيث قال له أحدهم: أوصني ولا تكثر عليّ فقال: لا تغضب.

وقال له آخر: أوصني فقال: عليك باليأس ممّا في أيدي الناس فإنّ ذلك هو الغني، وإيّاك والطمع فإنّه الفقر الحاضر، وصلّ صلاة مودّع وإيّاك وما يتعذر منه»(٢).

فكأنّه (عليه الصلاة والسّلام) توسّم بالسائل الأوّل الغضب فنهاه عنه، وفي السائل الآخر الطمع في الناس وطول الأمل، والكلام على قدر حال السائل أولى من أن يكون بحسب حال القائل. فإذن على كلّ ناصح أن تكون غايته مصروفة إلى تفرّس ومعرفة الصفات الخفيّة وتوسّم الأحوال اللائقة ليكون اشتغاله بالمهمّ، فإنّ

(١) نفس المصدر: ص٥١١، تحت رقم: ١.

<sup>(</sup>٢) المحجة البيضاء: ج٧، ص٩٧.

حكاية جميع مواعظ الشرع مع كل واحد غير ممكنة والاشتغال بوعظه بما هو مستغن عنه تضييع للوقت والجهد.

وهنا قد يسأل سائل: فإذا كان السائل لا تُعلم حاله وما يعاني منه من علل؟ والجواب:

هنا لابد للواعظ أن يعظه بما يشترك جميع الخلق بالحاجة إليه ولا يستغني عنه أحد، فإنّ في علوم الشرع أغذية وأدوية فالأغذية للكافّة والأدوية لأرباب العلل، ومثاله ما قال لقمان لابنه: ((يا بنيّ زاحم العلماء بركبتيك ولا تجادلهم فيمقتوك، وخذ من الدّنيا بلاغك وأنفق فضول كسبك لآخرتك، ولا ترفض الدّنيا كلّ الرّفض فتكون عيالاً وعلى أعناق الرّحال كلاً، وصم صوماً يكسر شهوتك ولا تصم صوما يضرّ بصلاتك، فإنّ الصلاة أفضل من الصوم ولا تجالس السفيه ولا تخالط ذا لوجهين. وقال لابنه أيضاً: يا بنيّ لا تضحك من غير عجب ولا تمش في غير أرب (۱)، ولا تسأل عمّا لا يعنيك ولا تضيّع مالك وتصلح مال غيرك فإنّ مالك ما قدّمت ومال غيرك ما تركت، يا بنيّ إنّ من يَرحم يُرحم ومن يصمت يسلم، ومن يقل الخير يغنم، ومن يقل الشرّ يأثم، ومن لا يملك لسانه يندم))(۱).

وقال رجل لأحدهم: أوصني، فقال: كلّ ما لو جاءك الموت عليه فرأيته غنيمة فألزمه وكلّ ما جاءك الموت عليه فرأيته مصيبة فاجتنبه.

(١) الارب – محركة -: الحاجة.

<sup>(</sup>٢) المحجة البيضاء في تهذيب الأحياء: ج٧، ص: ٩٨.

وقال موسى (عليه السلام) للخضر: أوصني فقال: كن بسّاماً ولا تكن غضّاباً وكن نفّاعاً ولا تكن ضرّاراً. وانزع عن اللّجاجة، ولا تمش في غير حاجة، ولا تضحك من غير عجب، ولا تعيّر الخطّائين بخطاياهم، وابكِ على خطيئتك يا ابن عمران<sup>(۱)</sup>. فهذه المواعظ مثل الأغذية الّتي يشترك الكافّة في الانتفاع بما، فإذا كان طلب الطبيب أوّل علاج المرضى فطلب العلماء أوّل علاج العاصين، فهذا أحد أركان العلاج وأصوله.

#### الثاني: وهو الصبر وهو علاج الشهوة:

ووجه الحاجة إليه أنّ المريض إنّما يطول مرضه لتناوله ما يضرّه وإنّما يتناول ذلك إمّا لغفلة عن مضرّته وإمّا لشدّة غلبة شهوته، فله سببان. فما ذكرناه هو علاج الغفلة فيبقى علاج الشهوة، وطريق علاجها حاصله: أنّ المريض إذا اشتدّت ضراوة مرضه لمأكول مضرّ فطريقه أن يستشعر عظم ضرر أكله، ثمّ يغيب ذلك المأكول عن عينه فلا يحضره ولا يجعله قريباً منه فتنازعه نفسه عليه أكثر، ثمّ يتسلّى عنه بما يقرب منه في صورته ويشبهه لكن ليس فيه ضرر أو ضرره بسيط، ثمّ يصبر بقوّة الخوف على الألم الذي يناله في تركه فلابد على كلّ حال من مرارة الصبر، فكذلك يعالج الشهوة في المعاصي كالشاب مثلاً إذا غلبته الشهوة فصار لا يقدر على حفظ عينه ولا حفظ قلبه أو حفظ جوارحه في السعي وراء شهوته فينبغي أن يستشعر ضرر ذنبه

<sup>(</sup>١) نفس المصدر السابق.

بأن يستقري المخوفات الّتي جاءت فيه من كتاب الله وسنّة رسوله (صلّى الله عليه وآله وسلّم) والأئمة (عليهم السلام)، فإذا اشتدّ خوفه تباعد عن الأسباب المهيّجة لشهوته. ومهيّج الشهوة أمران:

الأول: هو حضور المشتهى والنظر إليه، وعلاجه الهرب والعزلة.

والثاني: تناول لذائذ الأطعمة وتحصيل جميع الشهوات؛ بأن يعتاد على تحصيل رغباته وكل ما يشتهيه، وعلاجه الجوع والصوم الدّائم. وكلّ ذلك لا يتمّ إلّا بصبر ولا يصبر إلّا عن حوف ولا يخاف إلّا عن علم ولا يعلم إلّا عن بصيرة وافتكار أو عن سماع وتقليد. فأوّل الأمر حضور مجالس الذّكر، ثمّ الاستماع عن قلب مجرّد عن سائر الشواغل مصروف إلى السماع، ثمّ التفكّر فيه لتمام الفهم وينبعث من تمامه لا محالة خوفه، وإذا قوي الخوف تيسّر بمعونته الصبر وانبعث الدّواعي لطلب العلاج وتوفيق الله وتيسيره من وراء ذلك. فمن أعطى من قلبه حسن الإصغاء واستشعر الخوف فاتّقى وانتظر التّواب وصدّق بالحسنى فسييسّره الله لليسرى، وأمّا من مخل واستغنى وكذّب بالحسنى فسييسّره الله للعسرى، من الشعل به من ملاذّ الدّنيا، وما على الأنبياء إلّا شرح طرق الهدى وإمّا لله الآخرة والأولى.

نهج التائبين ......

### سبب إصرار العبد على المعاصي

أحدها: أنّ العقاب الموعود غيب ليس بحاضر والنّفس جبلت متأثّرة بالحاضر فتأثّرها بالموعود ضعيف بالإضافة إلى تأثّرها بالحاضر.

الثاني: أنّ الشهوات الباعثة على الذّنوب لذّاتها ناجزة وفعلية أي ينالها العبد فوراً وقد قوي ذلك واستولى على القلب بسبب الاعتياد والألفة والعادة طبيعة حامسة كما يقولون، وترك العاجل لخوف الآجل شديد على النّفس ولذلك قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ يُحِبُّونَ الْعاجِلَةَ وتَذَرُونَ الْآخِرَةَ﴾ (١)، وقال: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحُياةَ الدُّنيا﴾ (١). وقد عبر عن شدّة الأمر قول رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم)): ((حقّت الجنّة بالمكاره وحقّت النّار بالشهوات)) (١)، فإذن كون الشهوة مرهقة في الحال وكون العقاب متأخراً إلى المآل سببان ظاهران في الاسترسال مع حصول أصل الإيمان، فليس كلّ من يشرب في مرضه ماء الثلج لشدّة عطشه مكذّباً بأصل الطبّ ولا مكذّباً بأن ذلك مضرّ في حقّه، ولكنّ الشهوة تغلبه وألم الصبر عنه ناجز فيهون عليه الألم المنتظر.

الثالث: أنّه ما من مذنب مؤمن إلّا وهو في الغالب عازم على التوبة وتكفير السيّئات بالحسنات، وقد وعد بأنّ ذلك يجبره إلّا أنّ طول الأمل غالب على الطباع

<sup>(</sup>١) سورة القيامة: الآية ٢٠.

<sup>(</sup>٢) سورة الأعلى: الآية ١٦.

<sup>(</sup>٣) المحجة البيضاء في تهذيب الأحياء: ج٧، ص: ١٠١.

فلا يزال يسوّف التوبة والتكفير فمن حيث رجائه التوفيق للتّوبة ربّما يقدم عليه مع الإيمان.

الرّابع: أنّه ما من مؤمن موقن إلّا وهو معتقد أنّ الذّنب لا يوجب العقوبة إيجاباً لا يمكن العفو عنها فهو يذنب وينتظر العفو اتّكالاً على فضل الله.

فهذه أسباب أربعة موجبة للإصرار على الذّنب مع بقاء أصل الإيمان. نعم قد يقدم المذنب بسبب خامس يقدح في أصل الإيمان وهو كونه شاكّاً في صدق الرّسل وهذا هو الكفر كالّذي يحذره الطبيب عن تناول ما يضرّه في المرض وكان المحذّر ممّا لا يعتقد فيه أنّه عالم بالطبّ فيكذّبه أو يشكّ فيه فلا يبالي به فهذا هو الكفر. فإن قلت: فما علاج الأسباب الخمسة؟

والجواب: هو الفكر وذلك بأن يقرّر على نفسه في السّبب الأوّل وهو تأخّر العقاب أنّ كلّ ما هو آت آت وأنّ غداً للناظرين قريب، وأنّ الموت أقرب إلى كلّ أحد من شراك نعله فما يدريه فلعلّ الساعة قريب ويذكّر نفسه أنّه في أعماله الدنيوية يتعب في الحال لتحصيل الأمان من خوف أمر في المستقبل، فتراه يركب البحار ويقاسي الأسفار لأجل الرّبح الّذي يحتاج إليه في معاشه، بل لو مرض وأخره طبيب نصراني بأن شرب الماء البارد يضرّه ويسوقه إلى الموت، وكان الماء البارد ألذّ الأشياء عنده، تراه يتركه، مع أنّ الموت ألمه لحظة، فلينظر كيف يبادر إلى ترك ألذّ الأشياء عنده، تراه يتركه، مع أنّ الموت ألمه لحظة، فلينظر كيف يبادر إلى ترك

ملاذّه بقول انسان غير مسلم لم تقم معجزة على طبّه أو صحة قوله، فيقول: كيف

يليق بعقلي أن يكون قول الأنبياء المؤيّدين بالمعجزات عندي دون قول نصرانيّ

يدّعي الطبّ لنفسه بلا معجزة على طبّه ولا يشهد له إلّا عوام الخلق، وكيف يكون عذاب النّار أخفّ عندي من عذاب المرض، وكلّ يوم في الآخرة بمقدار خمسين ألف سنة من أيّام الدّنيا وبهذا التّفكّر بعينه يعالج اللّذة الغالبة عليه ويكلّف نفسه تركها ويقول: إذا كنت لا أقدر على ترك لذّاتي أيّام العمر وهي أيّام قلائل فكيف أقدر على ذلك أبد الآباد؟

وإذا كنت لا أطيق ألم الصّبر فكيف أطيق ألم النّار؟ وإذا كنت لا أصبر عن نعيم زخارف الدّنيا مع كدورتها وتنغّصها وامتزاج صفوها بكدرها فكيف أصبر عن نعيم الآخرة؟

وأمّا تسويف التّوبة فيعالجه بالفكر في أنّ أكثر صياح أهل التّار من التسويف، لأنّ المسوّف يبني على البقاء وأنه سيستطيع تدارك ما فاته، ولعلّه لا يبقى، وإن بقي فلا يقدر على البرّك غداً كما لا يقدر عليه اليوم، فليت شعري هل عجز في الحال إلّا لغلبة الشّهوة، والشهوة ليست تفارقه غداً بل تتضاعف إذ تتأكّد بالاعتياد فليست الشهوة الّتي أكّدها الإنسان بالعادة كالّتي لم يؤكّدها وعن هذا هلك المسوّفون، لأخم يظنّون الفرق بين المتماثلين ولا يظنّون أنّ الأيّام متشابحة في أنّ ترك الشّهوات فيها أبداً شاق، وما مثال المسوّف إلّا مثال من احتاج إلى قلع شجرة فرآها قويّة لا تنقلع إلّا بمشقّة شديدة، فقال: أؤخّرها سنة ثمّ أعود إليها وهو يعلم أنّ الشجرة كلّما بقيت ازداد رسوخها وهو كلّما طال عمره ازداد ضعفه فلا حماقة في

الدّنيا أعظم من حماقته إذ عجز مع قوّته عن مقاومة ضعيف فأخذ ينتظر الغلبة عليه إذا ضعف هو في نفسه وقوي الضّعيف.

وأمّا المعنى الرّابع وهو انتظار عفو الله تعالى فحاله كمن ينفق جميع أمواله ويترك نفسه وعياله فقراء منتظراً من فضل الله تعالى أن يرزقه العثور على كنز في أرض خربة، فإنّ إمكان العفو عن الذّنب مثل هذا الإمكان وهو مثل من يتوقّع السرقة في بلده وذخائر أمواله في صحن داره وقدر على دفنها وإخفائها فلم يفعل وقال: أنتظر من فضل الله أن يسلّط غفلة وعقوبة على الظالم الناهب حتى لا يتفرّغ إلى داري أو إذا انتهى إلى داري مات على باب الدّار فإنّ الموت ممكن، وقد حُكي أنّ مثل ذلك وقع فأنا أنتظر من فضل الله مثله فمنتظر هذا منتظر أمر ممكن ولكنّه في غاية الحماقة.

وأمّا الخامس؛ وهو الشكّ في الرسول، فهذا كفر، وعلاجه الأسباب الّتي تُعرّفه صدق الرّسل وذلك يطول ولكن يمكن أن يعالج بعلم قريب يليق بحدّ عقله فيقال له: ما قاله الأنبياء المؤيّدون بالمعجزات هل صدقه ممكن أو يقول أعلم أنّه محال كما أعلم استحالة كون شخص واحد في مكانين في حالة واحدة، فإن قال: أعلم استحالته كذلك فهو أخرق معتوه وكأنّه لا وجود لمثل هذا في العقلاء وإن قال: أنا شاكّ فيه، فيقال: لو أحبرك شخص واحد مجهول عند تركك طعامك في البيت لطة أنّه قد ولغت فيه حيّة وألقت سمّها فيه وجوّزت صدقه فهل تأكله أو تتركه، وإن كان ألذ الأطعمة، فتقول: أتركه لا محالة، لأنه إن كذب فلا يفوتني إلّا هذا وإن كان ألذ الأطعمة، فتقول: أتركه لا محالة، لأنه إن كذب فلا يفوتني إلّا هذا

الطعام والصّبر عنه، وإن كان شديداً فهو قريب، وإن صدق فتفوتني الحياة، والموت بالإضافة إلى ألم الصبر عن الطعام وإضاعته شديد.

وهنا نقول لمثل هذا: يا سبحان الله كيف تؤخر صدق الأنبياء كلّهم مع ما ظهر لهم من المعجزات وصدق العلماء والأولياء والحكماء كافّة، بل جميع أصناف العقلاء ولست أعني بهم جهّال العوام بل ذوي الألباب عن صدق رجل واحد مجهول لعل له غرضاً فيما يقول، فليس في العقلاء إلّا من صدّق باليوم الآخر وأثبت ثواباً أو عقاباً وإن اختلفوا في كيفيّته، فإن صدقوا فقد أشرفت على عذاب يبقى أبد الآباد، وإن كذبوا فلا يفوتك إلّا بعض شهوات هذه الدّنيا الفانية المكدّرة فلا يبقى له توقف إن كان عاقلاً مع هذا التفكّر، إذ لا نسبة لمدّة العمر إلى أبد الآباد، بل لو قدرنا الدّنيا مملوءة بالدّرة وقدّرنا طائراً يلتقط في كلّ ألف ألف سنة حبّة واحدة منها لفنيت الذّرة ولم ينقص أبد الآباد شيئا فكيف يفتر رأي العاقل في الصبر عن الشهوات مائة سنة مثلاً لأجل سعادة تبقى إلى الأبد، وذلك لا منتهى له، ولذلك الشهوات مائة سنة مثلاً لأجل سعادة تبقى إلى الأبد، وذلك لا منتهى له، ولذلك

قال المنجّم والطبيب كلاهما لا يحشر الأموات قلت إليكما إن صحّ قولي فالخسار عليكما

ولذلك قال أمير المؤمنين (عليه السلام) لبعض من قصر عقله عن فهم تحقيق الأمور وكان شاكًا: ((إن صح ما قلت فقد تخلّصنا جميعاً وإلّا فقد تخلّصنا

وهلكت))(١). ومراده (عليه السلام): أن العاقل يسلك طريق الأمن في جميع الأحوال.

وهنا لنا ان نسأل: إن الإنسان إذا أخضع تصرفه للفكر، فإنه يرى هذه الأمور جلية، لكن القلوب لا تنصاع إلى ما يقتضيه الفكر، فما علاج القلوب لردّها إلى الفكر لا سيّما من آمن بأصل الشرع وتفصيله؟

ونقول في مقام الجواب: أنّ المانع من الفكر أمران:

أحدهما: أنّ الفكر النافع هو التفكر في عقاب الآخرة وأهوالها وشدائدها وحسرات العاصين في الحرمان عن النعيم المقيم، وهذا فكر لدّاغ مؤلم للقلب فينفر القلب عنه ويتلذّذ بالفكر في أمور الدّنيا على سبيل التفرّج والاستراحة.

والثاني: أنّ الفكر شغل في الحال مانع من لذائذ الدّنيا وقضاء الشهوات، وما من إنسان إلّا وله في كلّ حالة من أحواله ونفس من أنفاسه شهوة قد تسلّطت عليه واسترقّته فصار عقله مسخّراً لها، فهو مشغول بتدبير حيلته وصارت لذّته في طلب الحيلة فيه أو في مباشرة قضاء الشهوة والعقل يمنعه من ذلك.

وعلاج هذين المانعين أن يقول لقلبه: ما أشدّ غباوتك في الاحتراز والابتعاد عن التفكر في الموت وما بعده تألّما بذكره، فكيف تصبر على مقاساة الموت إذا وقع عليك وهو مما لا مفر منه؟

<sup>(</sup>١) المحجة البيضاء في تهذيب الأحياء: ج٧، ص: ١٠٤.

وأمّا الثاني: وهو كون الفكر مفوتا للذّات الدّنيا فهو أن يعلم أنّ فوات لذّات الآخرة أشدّ وأعظم، فإنَّا لا آخر لها ولا كدورة فيها، ولذَّات الدُّنيا سريعة الدُّثور والفناء وهي مشوبة بالمكدّرات فما فيها لذّة صافية عن كدر وتعب، وفي التوبة عن المعاصى والإقبال على الطاعة تلذَّذ بمناجاة الله تعالى واستراحة بمعرفته وطاعته وطول الإنس به، وهذا مما لا يدركه إلا من تاب حقاً، وليس آكل الحلاوة كواصفها، ولو لم يكن للمطيع جزاء على عمله إلّا ما يجده من حلاوة الطاعة وروح الإنس بمناجاة الله لكان ذلك كافياً، فكيف بما ينضاف إليه من نعيم الآخرة، نعم هذه اللّذة لا تكون في ابتداء التوبة ولكنها تصبر عليها مدّة مديدة وقد صار الخير ديدناً كما كان الشرّ ديدنا، فالنفس قابلة ما عوّدتما تتعوّد، والخير عادة والشرّ لجاجة، فإذن هذه الأفكار المهيّجة للخوف المهيّج لقوّة الصبر عن اللّذات ومهيّج هذه الأفكار وعظ الوعّاظ ومنبّهات تقع للقلب بأسباب تتّفق لا تدخل تحت الحصر فيصير الفكر موافقاً للطبع، فيميل القلب إليه ويعبّر عن السبب الّذي أوقع الموافقة بين الطبع وبين الفكر - الَّذي هو سبب الخير - بالتوفيق إذ التوفيق هو التَّأليف بين الإرادة وبين المعنى الّذي هو طاعة نافعة في الآخرة.

وقد روي في حديث طويل أنّه قام عمّار بن ياسر (رضي الله عنه) فقال لعليّ (عليه السّلام): ((يا أمير المؤمنين أخبرنا عن الكفر على ماذا بني؟ فقال: على أربع دعائم على الجفاء والعمى والغفلة والشكّ، فمن جفا احتقر الحقّ وجهر بالباطل

ومقت العلماء، ومن عمى نسي الذّكر، ومن غفل حاد عن الرّشد، ومن شكّ غرّته الأمانيّ فأخذته الحسرة والندامة، وبدا له من الله ما لم يكن يحتسب)(١).

فما ذكرناه بيان لبعض آفات الغفلة عن التفكّر، وهذا القدر في التوبة كاف.

والحمد لله ربّ العالمين وصلاته وسلامه على سيّدنا محمّد النبيّ وآله الطيّبين الطاهرين.

<sup>(</sup>١) تحف العقول ج١ ص١٦٧.

(1.0)		ج التائبيز	نهز
-------	--	------------	-----

# المحتويات

٣	المقدمة
٦	حقيقة التوبة
۸	وجوب التوبة وفضلها
١١	وجوب التوبة فوري
١٢	تارك التوبة ناقص الإيمان
10	وجوب التوبة عام لا ينفك عنه أحد
۲ ٤	شروط التوبة النصوح
۲٧	آثار التوبة النصوح
٣٢	التوبة الجامعة للشر ائط مقبولة
٣٦	الذنوب التي يجب التوبة منها
٤٠	الكبائر في روايات أهل البيت (عليهم السلام)
٤٥	آثار الذنوب
٤٩	أضرار الذنوب والمعاصي
٥٢	موعظة من الإمام علي بن الحسين (عليهما السلام)
٥٧	أسباب تحول الصغائر إلى كبائر
٦٣	التوبة النصوح وكيفيتها
٧٣	طبقات التائبين
٧٨	ما ينبغي أن يبادر إليه التائب
۸۲	النطهير المعنوي
۸٥	طريق العلاج لحل عقدة الإصرار
A7	الأول: العلّم و هو علاج الغفلة:
۹٠	الخوف والرجاء آلة المبلّغ
90	الثاني: وهو الصبر وهو علاج الشهوة:
٩٧	سبب إصرار العبد على المعاصى
1.0	المحتورات